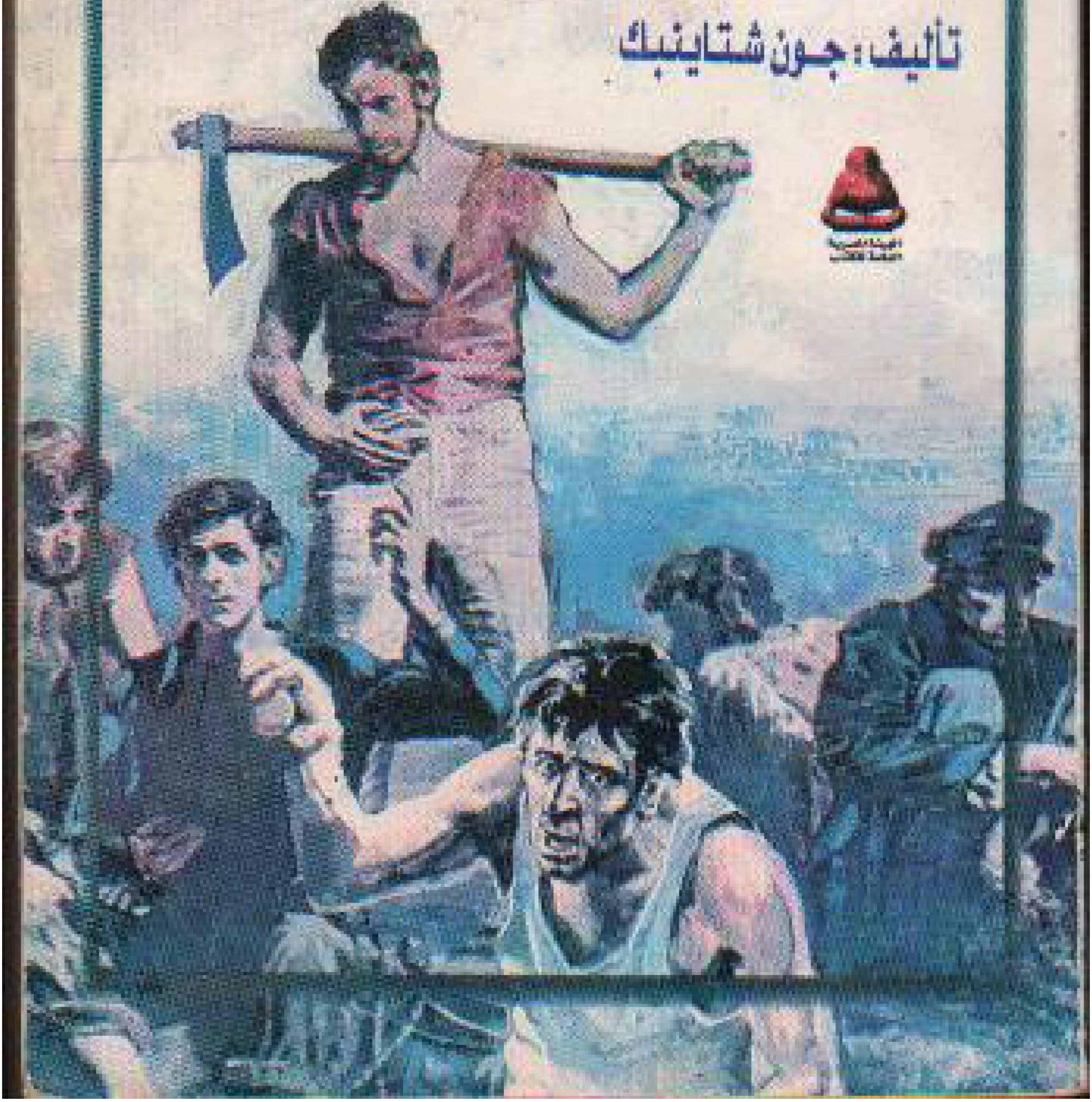
مكتبة الأسرة

مهرجان القراءة للجميع ١٩٩٨

الأدب العالمى للناشئين

عناقيد الغضب

تأليف: جون شتاينبك



عناقيد الغضب

عناقيد الغضب

تأليف: جون شتاينبك

ترجمة: الشريف خاطر

مراجعة: مختار السويفي

مهرجان القراءة للجميع ٩٨

مكتبة الأسرة

برعاية السيدة سوزان مبارك

(روائع الأدب العالمي للناشئين)

عناقيد الغضب

تأليف: جون شتاينبك
ترجمة: الشريف خاطر
مراجعة: مختار السويفي

الغلاف للفنان جمال قطب

الإشراف الفني:
للفنان محمود الهندي

المشرف العام
د. سمير سرحان

الجهات المشاركة:
جمعية الرعاية المتكاملة المركزية
وزارة الثقافة
وزارة الإعلام
وزارة التعليم
وزارة التنمية الريفية
المجلس الأعلى للشباب والرياضة
التنفيذ: هيئة الكتاب

مقدمة



ومازال نهر العطاء يتدفق، تتفجر منه ينابيع المعرفة والحكمة من خلال إبداعات رواد النهضة الفكرية المصرية وتواصلهم جيلاً بعد جيل، ومازلنا نتشبث بنور المعرفة حقاً لكل إنسان ومازلت أحلم بكتاب لكل مواطن ومكتبة فى كل بيت.

شبت التجربة المصرية «القراءة للجميع» عن الطوق ودخلت «مكتبة الأسرة» عامها الخامس يشع نورها ليضيء النفوس ويثري الوجدان بكتاب فى متناول الجميع ويشهد العالم للتجربة المصرية بالتألق والجدية وتعتمدها هيئة اليونسكو تجربة رائدة تحتذى فى كل العالم الثالث، ومازلت أحلم بالمزيد من لآلىء الإبداع الفكرى والأدبى والعلمى تترسخ فى وجدان أهلى وعشيرتى أبناء وطنى مصر المحروسة، مصر الفن، مصر التاريخ، مصر العلم والفكر والحضارة.

سوزان مبارك

على سبيل التقديم

تواصل مكتبة الأسرة ٩٨ رسالتها التنويرية وأهدافها النبيلة بربط الأجيال بتراثها الحضاري المتميز منذ فجر التاريخ وإتاحة الفرصة أمام القارئ للتواصل مع الثقافات الأخرى، لأن الكتاب مصدر الثقافة الخالد هو قلعتنا الحصينة وسلاحنا الماضي في مواكبة عصر المعلومات والمعرفة.

د. سمير سرحان

عن الروايــة والعنوان

جرت احداث هذه الرواية في شمال امريكا في الثلاثينيات من هذا القرن . فلفترة طويلة ظل المزارعون الصغار في اوكلاهوما وكذلك في ولايات الوسط في الولايات المتحدة الأمريكية يزرعون محصــولا واحدا ، وهو محصول القطن ، عاما بعد عام ، فانتهكت التربة واصابها الضعف . وحدث انه لم يسقط في الثلاثينيات سوى قليل من المطر ، الامر الذى ادى الى جفــاف التربة وتفككها فتحولت الى غبار ، طار في الهواء بفعل العواصف الشديدة ، وتلاشت التربة .

ازاء ذلك تحتم على المزارعين الاقتراض من البنوك . لكن الذى حدث أن كثيرا من البنوك بســـبب الازمة

الاقتصادية التي مرت بالبلاد في أواخر العشرينيات ، وتوقف التجارة ــ أن خسرت أموالها وأغلقت أبوابها ، وبالتالي فان ما بقي من البنوك كان يخشى اقراض أي أحد .

وهكذا أصبح المزارعون الصغار من أمثال عائلة « جوود » بلا أرض ، ولا محاصيل ، ولا مال . وكان الجميع يسمعون عن كاليفورنيا بجوها الرائع ، ومحاصيلها الوفيرة من الفواكه والخضروات . فقد كانت كاليفورنيا ولاية كبيرة ، وكان أصحاب المزارع هناك في حاجة لعمال للقيام بجني محاصيلهم ، فقرر مزارعو أوكلاهوما الفقراء التوجه الى الغرب عبر رحلة طويلة صعبة ، على أمل العثور على عمل هناك ، وذلك على أمل انه يحدث ذات يوم أن يتملكوا أرضا لأنفسهم .

لكن المزارعين الأثرياء في كاليفورنيا كانت لديهم مشاكل أيضا . كانت محاصيل الفاكهة من الوفرة بحيث

لم يستطيعوا تسويقها . وبالتالى لم يكن فى مقدورهم دفع اجور العمال الذين يقومون بجمع المحاصيل ، لانهم لا يحققون اية ارباح ، ولأنهم مدينون لبعضهم البعض ، وعلى يقين تام بأن البنك سيستولى على اراضيهم فى العام القادم . بالاضافة الى خشيتهم من اهل اوكلاهوما - « الاوكيز » - ان يستولوا على اراضيهم ، وازاء هذا كله ، فقد كانوا يدفعون اجورا قليلة « للأوكيز » مقابل القيام بالعمل ، حتى انهم اصبحوا يتضورون جوعا هم واطفالهم .

وفى كل ارجاء كاليفورنيا ، كانت محاصيل الفاكهة تترك حتى تتعطن . كان اصحاب المزارع يحرقون محاصيل البن والقطن ؛ اما البطاطس فكانوا يلقون بها فى الانهار حتى لا يتحصل عليها الناس . وكانت الفاكهة تترك حتى تفسد ؛ ومحاصيل الغذاء يتم تدميرها ، حتى تظل الاسعار مرتفعة .

كان هناك مليون جائع يشاهدون المحاصيل الطيبة

وهي تثمر . وكان الأطفال يتضورون جوعا ، بينما كانت رائحة الفاكهة المعطنة تملأ البلاد .

كان الناس يرغبون في العمل لكن لم يكن ذلك باستطاعتهم ، فشعروا بالاحباط والفشل ، وبدأ الغضب ينمو وبشكل أكبر في عيونهم الجائعة .

لقد تحولت الأزمة بمرور الوقت الى حالة من الخوف والغضب ، خاصة عندما بدأ الأمريكيون يكرهون بعضهم البعض . وعنوان هذه الرواية « عناقيد الغضب » مستمد من أغنية كتبت اثناء الحرب الأهلية الأمريكية (١٨٦١ ــ ١٨٦٥) ، عندما كان الامريكيون يحاربون الامريكيين . وتحكي الأغنية قصة المشاكل التي وقعت فيها البلاد ، عندما قيدت حرية بعض ابنائها . عندئذ من الممكن ان يحطم « حصاد » الغضب كل سبيل الحياة .

لقد كانت عناقيد الغضب تنضج داخل نفوس الناس . وكان الناس على استعداد ساعتها لتقبل « حصاد صعب » نتيجة لمرحلة من السخط والتخريب .

الفصل الأول

الغبار

في اوكلاهوما شقت المحاريث الأرض الحمراء ، وتساقط المطر فنما القمح . وفي نهاية شهر مايو سطعت اشعة الشمس بقوة فوق القمح النامي ، فغدا مستقيما اخضر ، واشتدت سطوة الشمس على الارض ، حتى جفت وشحبت . وفي شهر يونيو زادت حدة الشمس فاصبح الهواء ملتهبا .

في كل مكان ، كان يتناثر الغبار ، وكل شيء يتحرك كان يثير سحبا من هذا الغبار ، تظل عالقة في الهواء لفترة طويلة .

في منتصف شهر يونيو وفدت سحب رعدية من تكساس وخليج المكسيك . وتطلع الناس الى السماء ، وكلهم أمل في سقوط الأمطار ، لكنها لم تسقط ، لقد دفعت الرياح السحب تجاه الشمال . واشتد هبوب الريح فتصاعد الغبار من الحقول . واستمرت الريح تعصف بشدة وبشكل متواصل فتطاير الغبار حتى ملأ السماء . ثم عصفت الريح بالقمح النامي .

وجاء يوم احتجبت فيه الشمس ، وبدت كقرص احمر . حتى أن الرجال والنساء كانوا يربطون المناديل لحماية وجوههم عندما يخرجون . أما الليل فكان حالك الظلام ، لأن الغبار اخفى النجوم . واغلقت البيوت ابوابها ونوافذها في وجه الغبار ، لكنه كان يتسرب ليحط على المقاعد والمناضد .

انتهت العاصفة وتركت الارض في حالة موات . وفي الصباح كان الغبار يغطي القمح ، والاسوار والاسطح والاشجار . وخرج الناس من بيوتهم وهم يتنفسون هواء ساخنا . ووقف الرجال بجوار اسوار

مزارعهم صامتين يتطلعون الى محاصيلهم الميتة . وخرجت زوجاتهم ووقفن الى جوارهم ، يتطلعن الى وجوههم . ووقف الأطفال بالقرب منهم وأخذوا يتطلعون أيضـــا .

بعد فترة غدت وجوه الرجال جامدة ونكســوها مسحة من الغضب . فتبلغت النســوة ان كل شيء سيصير على ما يرام ، لأن الرجال لن يستسلموا هذه المرة . وعادت النسوة الى البيوت لاستئناف عملهن ، وعاود الأطفال لعبهم .

جلس الرجال خارج البيوت يراقبون الغبار الذي غطى الأرض كلها . ظلوا جالسين يخططون للمستقبل ، ويعدون انفسهم لمعاودة النضال .

* * *

على الطريق السريع ، تهادت سيارة شحن حمراء كبيرة ، ثم توقفت بالقرب من أحد الطرق الفرعية الضيقة المهملة ، وقفز منها شاب وتوجه الى السائق .

قال : « شكرا لتوصيلك اياي ، مع السلامة » ثم استدار سائرا في الطريق الفرعي .

فقال له السائق : « اتمنى لك حظا سعيدا » .

وزمجر صوت المحرك وانطلقت الشاحنة الحمراء مخلفة وراءها سحابة من الغبار .

كان الرجل الذي انطلق سائرا في الطريق الفرعي القذر ، في حوالي الثلاثين من عمره . عيناه بنيتان غامقتان جدا ، شفتاه مزمومتان بشدة ، يداه خشنتان من جراء العمل وذات اصابع غليظة واظافر قصيرة سميكة .

كان حذاء الرجل جديدا لكنه من النوع الرخيص . وايضا كانت بدلته جديدة ، لكنها من قماش رمادي خشن . كان طويلا وسترة البدلة فضفاضة عليه الى حد كبير ، في الوقت الذي كان البنطلون قصيرا جدا . تطلع الى حذائه الاصفر الجديد ، ثم انحنى وفك رباط الحذاء ، وخلع الحذاء ، ثم السترة ووضعهما تحت ذراعه وواصل سيره على الطريق .

كان يمتد على جانبي الطريق سور من السلك الرفيع . تمتد خلفه حقول القمح التي عصفت بها الريح والحرارة . كانت الشمس وسط السماء وتفصد الرجل عرقا نابطا في سيره . ورأى امامه شجرة مكسوة بالغبار ذات ظل شاحب . وقف الرجل تحت ظلها للحظة ثم واصل سيره بسرعة تحت اشعة الشمس الصفراء .

كانت رائحة الغبار الحار تملأ الهواء . ثم انتهت حقول القمح ، وبدأت حقول القطن باوراقها الخضراء الداكنة في الظهور . كان لوز القطن قد بدأ بتشكل ، والاوراق الخضراء الداكنة مغطاة بطبقة رقيقة من الغبار . كانت النباتات تقاوم اشعة الشمس من اجل البقاء .

كان الطريق القذر يمتد امامه ، وملأ التراب عيني الرجل . ثم انضى الطريق الى تل صغير صعد معه .

واصل الرجل السير . ثم مالبثت الشمس ان فقدت رارتها ؛ لكن الهواء كان لايزال ساخنا جافا وعلى

الجانب الأيمن للطريق ، كان يوجد سور من السلك يحد حقول القطن . واسرع الرجل في سيره . انه يعرف ذلك السور ، فأبوه هو الذى أقامه منذ عدة سنوات مضت حول مزرعتهم (مزرعة عائلة جورد) - ذات الاربعين هكتارا .

صعد « توم جوود » الى قمة التل ، ثم توقف ، والقى نظرة شاملة على المزرعة ، موطنه العزيز . لقد تهدم أحد اركان البيت الصغير ، وتداعت الاسوار ، ونما القطن فى الفناء الخلفي للبيت حتى حظيرة المواشي الخشبية تهاوت على جنب واحد ، ونما القطن المكسو بالتراب ملاصقا لها .

حملق توم لفترة طويلة .

ثم فكر : « لا يوجد أحد هنا ، لابد ان شيئا ما قد حدث بالتأكيد » .

هبط من التل ، وتوجه الى مخزن الأدوات بجوار البيت وتطلع بداخله ، لم يعثر على اى ادوات . ورأى

علبة زيت قديمة مغطاة بالقذارة ، واثنين من الأوفرولات المتيرثة معلقين على مسمار .

توجه توم ناحية البئر . ألقى بداخله حصاة وأخذ ينصت . قال بصوت عال : « لا يوجد به ماء . محتمل أنهم ماتوا جميعاً . لكن كان لابد لأحد أن يخبرني بذلك » .

كان الباب الأمامي للبيت الخشبي مفتوحاً ، ولا يوجد أي أثاث في المطبخ ولا أوان ولا أوعية . تطلع توم جوود داخل غرفة النوم لا أسرة ولا مقاعد . لا شيء سوى حذاء حريمي ملقى في أحد الأركان . التقط الحذاء وأخذ يتفرس فيه .

قال : « إنه حذاء أمي . لكنه مهترئ . كانت أمي تحب هذا الحذاء . لقد رحلوا ؛ ولابد أنهم أخذوا معهم كل شيء » .

خرجت قطة نحيفة من الحظيرة ، وتوجهت ناحيته في صمت وجلست .

سأل توم نفسه : « لماذا لم ترحل هذه القطة أيضا الى اي مكان في الجوار . يحتمل الا يكون هناك احد في الجوار . ربما رحلوا جميعا » .

اخذ توم يحملق عبر الحقول . فرأى رجلا طويلا يجوس خلال القطن ويثير سحابة عالية من الغبار ، وحملق توم في وجه الرجل الطويل الشاحب . كان يعلو جبهته شعر اشيب اكرت . ويرتدي أوفرول وقميصا ازرق ، اما حذاؤه القماشي فقد كان بلون التراب .

نادى عليه توم : « بن ! المبجل كاسي ! هاي كاسي ! كيف حالك ؟ » .

فرد عليه كاسي بصوت عال : « الست انت توم جورد - ابن جورد العزيز ؟ » .

- انه انا أين أهلي ؟

- أين كنت يا توم ؟ لقد رحلوا ؛ الى ناحية « رانسيس » المزرعة القريبة التالية . رحل الناس

جميعا منذ عدة اسابيع ، عندما وصلت الجرافات ، كان اهلك يودون البقاء هنا ، ونصـــــدي لهم جنك بالبندقيـة ، لكن البندقية لم تستطع ايقاف انجرار . وهكذا رحلوا . لكن كيف لم تعلم بذلك ؟

اطرق الرجل ببصـــــره الى الارض وحرك قدميه العاريتين في التراب .

ـ انا لم أكن موجودا هنا منذ اربع سنوات . الم تسمع بذلك ؟ كنت مســــجونا ، لأنني قتلت رجلا ، هاجمني بسكين فضربته بالجاروف على راسه . حكم علي بسبع سنوات . لكنهم اطلقوا سراحي لحســـن السير والسلوك . اهلي لم يكتبوا لي منذ سنين . ماذا ينوون أن يفعلوا ؟

ـ سمعت انهم يفكرون في الرحيل الى الغرب . والدك سيشتري سيارة . الناس يقولون ان الحياة ميسرة في الغرب . يمكنك أن تقطف البرتقال مباشرة من على الشجر .

تطلع توم الى البيت المتهدم .

قال ببطء . عندما كنت استلقي على سريري في السجن ، ليلة بعد ليلة ، كنت أفكر فيما سيكون عليه حالي عندما أعود الى هنا .

كنت متأكدا ان الحال لابد وان يكون قد تغير هنا ، لكن لم اتصور انه سيكون هكذا . على اى حال سأتوجه الى « رانسيمن » في الصباح . ستأتي معي ، يا كاسي ، أليس كذلك ؟ فأمي دائما ما تتذكرك . وربما نذهب معنا الى الغرب . نكم يسعد أمي أن يكون الواعظ معنا .

قال كاسي : انا لم أعد واعظا الآن . لكن على أى حال ، سأذهب معك . وعندما يقرر أهلك الرحيل سأكون معكم على الطريق .

قال توم : اعتقد انه لابد وان نأخذ قسطا من النوم، لاننا سوف نتوجه الى « رانسيمن » مبكرا صباح الغد .

قال كاسي : ليست بي رغبة في النوم . نلدي

الكثير لأفكر فيه • ولأنني الآن لست واعقا ، فلدى الكثير فعلا لأفكر فيه .

تمدد نوم على ظهره ، وتطلع غالبا الى النجوم ، ثم تثاءب وغطى وجهه بسترته ، وتهيأ للنوم .

وبدأت حياة الليل تسري ببطء ، بدأت الحيوانات الصغيرة تخرج من جحورها . الفئران تمرح على الأرض ، والأرانب البرية تتجه ناحية أي شيء أخضر ، والطيور الجارحة أخذت تحلق في هدوء فوق رأسي الرجلين •
ونام الرجلان .

الفصل الثاني

الجرارات والارض

ما ان وصلت الجرارات الى كل ارجاء "وكلاهوما" ، حتى تحتم على الناس أن يغادروا الأراضي . فى البداية جاء ملاك الأراضي . وتفحصوا الارض اليابسة بأصابعهم . وراقب المزارعون (مستأجرو الأرض) المشهد من خلف أبواب بيوتهم وكلهم تعاسة . ثم توجه الملاك بسياراتهم نحو أفنية البيوت وتحدثوا اليهم من نوافذ سياراتهم . ووقفت النسوة فى الخلاء وخلفهن الأطفال يراقبون الرجال وهم يتحدثون الى الملاك .

كان بعض الملاك عطوفا ، والبعض الآخر عنيدا شرسا ، لكنهم جميعا كانوا يتحدثون نفس اللغة .

ـ « البنك استولى على الاراضي ، فهذه أرض مجدبة ، وأنتم تعرفون ذلك . ان الأرض تزداد جدبا وفقرا ، ويتطاير منها الغبار . كما ان زراعة القطن تضعف خصوبة الأرض ، وتجعلها جدباء » .

طأطأ المستأجرون رؤوسهم . فهم يعرفون ذلك . لكن لو أنهم بقوا في الأرض لعام آخر ، فربما يكون عاما طيبا بالنسبة لهم .

قال الملاك : « نحن لا نستطيع أن نضمن ذلك ، فنحن مطالبون بسداد ديوننا للبنك » .

غض المستأجرون أبصارهم الى الأرض وقالوا : « ماذا تريدون منا ان نفعل ؟ نحن الآن على حافة الموت جوعا . الاطفال يتضورون جوعا طوال الوقت ، وملابسنا قديمة مهترئة » .

فأجاب الملاك : « ان نظام ايجار الأرض لن يكون ساريا بعد الآن . ويجب عليكم كمزارعين صغار ، أن تغادروا الأرض الآن . فرجل واحد يملك جرارا ، يمكنه

ان يقوم مقام اثنتي عشرة أو اربع عشرة عائلة منكم ، ونحن ندفع لمثل هذا الرجل اجرا ، اجرا محددا ، ونأخذ المحصول كله . لابد ان نفعل ذلك .

ـ « لكنكم ، ستقتلون الأرض بما فيها من قطن » .

ـ « نعلم ذلك . لذا ينبغي علينا أن نجني القطن قبل ان تموت الارض . بعدها نبيع الأرض » .

ـ « لكن ماذا ، بالنسبة لنا ؟ كيف يتسنى لنا ان نأكل ؟ » .

ـ « لابد ان تغادروا الأرض » .

ـ « لقد أخذ جدي هذه الأرض من الهنود . ولقد ولدت هنا ، وأطفالنا ولدوا في هذا البيت ، انها ارضنا ارضنا لأننا ولدنا فيها ، وعملنا فيها ، ومتنا فيها . وهذا ما يبرر ملكيتنا لهذه الأرض » .

ـ « أنت على خطأ . الارض ملك للبنك ، ولابد ان ترحلوا » .

— « لكن اذا رحلنا ، فالى اين نذهب ؟ وكيف ؟ وليس معنا نقود » .

— « نحن آسفون . لأنكم تقيمون على ارض ليست لكم . لماذا لا تذهبون الى الغرب ، الى كاليفورنيا ؟ فهناك فرص للعمل ، والجو هناك لا يتسم بالبرودة أبدا . حيث يكثر الخوخ ، والكمثرى في الربيع ، ثم القطن بعد ذلك . وهناك بعض المحاصيل في كاليفورنيا تحتاج دائما الى من يقوم بجمعها . لماذا لا تذهبون الى هناك ؟ » .

ادار الملاك محركات سيارتهم وانطلقوا .

تساءلت النساء : « الى اين سنذهب ؟ الى اين سنذهب ؟ » .

— « لانعرف ، لا نعرف ! » .

تحلق الأطفال حول النساء في البيوت وتساءلوا :

— « ما الذى سنفعله يا أماه ؟ والى أين سنذهب ؟ »

— « نحن لم نعرف بعد . هيا ، اذهبوا ، والعبوا »

لكن لا تقتـــربوا من آبائكم . فهم يفكرون فى كثير من الأمور » .

* * *

ظهرت الجرارات فوق الطرق وفى الحقول . وأثارت ســحابات كثيفة من الغبار .

لم يكن الرجل الجالس على مقعد قيادة الجرار ، أشبه بالرجال العاديين . لقد كان يرتدى قفازا ، ونظارة واقية ، وقناعا من المطاط . كان بمثابة جزء من الجرار .

قاد الرجل الجرار دون هوادة عبر عشرات المزارع ، ولم يكن يهتم اطلاقا برؤية الأرض ، أو يشـــمها أو يســتشعرها . لقد كان الرجل يحب الجرار ، ولبس الأرض .

عند الظهيرة ، توقف سائق الجرار . أحيانا كان يتوقف بالقرب من بيوت المســتأجرين ، لكن الأطفال الجائعون يندفعون لمشاهدته وهو يخرج الســاندوتشات ويأكلها .

* * *

سأله أحد المزارعين : « كم تتقاضى مقابل هذا العمل ؟ » .

ــ « ثلاثة دولارات فى اليوم ، لدى زوجة وأطفال لابد أن تحيا ثلاثة دولارات يوميا تصــــــرف فى نفس اليوم » .

ــ « هل تعرف أنه بسبب دولاراتك الثلاثة هذه التى تقبضها يوميا ، فان هناك خمس عشــــــرة أو عشرين عائلة لن تأكل اى شىء ــ أى ان حوالى مائة شخص تقريبا لن يجدوا عملا بسبب دولاراتك الثلاثة » .

ــ « شىء لا يهمنى ، فالزمن يتغير . لم يعد هناك مجال للمزارعين الصغار هذه الأيام . اذهبوا الى مكان آخر ، وحاولوا كسب ثلاثة دولارات فى اليوم » .

انتهى سائق الجرار من تناول طعامه ، وقال : « من الأفضل لكم ان تتركوا الأرض سريعا . فسوف أقوم بتسوية المكان فيما بعد . لدى أوامر بذلك . واذا لم تغادروه ، فمن المحتمل ان أندفع بالجرار ناحية بيتكم ، وأهدمه . وربما يدفعون لى أجرا اضافيا .

— « لكنني بنيت هذا البيت بيدى هاتين ، واذا هدمته فسوف اقتلك ببندقيتى » .

— « لا فائدة من ذلك . لو انك قتلتنى ، سيكون هناك رجل آخر فوق الجرار غدا » .

ادار السائق محرك الجرار وقام بعدة مناورات الى الامام والخلف ، ثم ضرب احد الجدران ، فانهار جانب من البيت . ثم زمجر الجرار مبتعدا ، والمزارع يلاحقه وبندقيته فى يده ، وخلفه زوجته . فى حين كان الاطفال يقفون خلفها . وبدأ الجميع فى مطاردة الجرار .

الفصل الثالث

عائــلة جــورد

استيقظ توم وكاسي عند الفجر ، وشرعا في السير على الفور . سارا في صـــمت ورائحة التراب تمــلأ أنفاسهما .

وتبدت حمرة شروق الشمس في الســـماء وبدأت الطيور تغرد .

أخيرا قال توم : « انظر ، هاهي مزرعة « رانسيس » وأسرع في سيره ثم قال : « أرجو أن يكون كل أهلـــي هناك . كما أرجو أن تكون أمي . . . » .

في تلك اللحظة رأى الرجـــلان البيت ، وكان أشبه

بالصندوق غير المطلى ومجردا من أى شىء . وفي الفناء كانت توجد كومة من الأثاث ، اسـرة ، ومقاعد ، ومناضد .

قال توم : « يا الهي ، انهم على وشك الرحيل » .

كانت هناك سيارة نصف نقل تقف وسط فناء البيت . شكلها غريب . كانت سيارة عادية في يوم من الأيام . ازيلت عنها مقاعدها الخلفية واستبدلت بأرضية خشبية على هيئة مستطيل لها جوانب ، لتصبح سيارة نصف نقل مكشوفة .

عندما اقترب الرجلان من المكان كانت الشمس قد طلعت . والقت بأشعتها على نوافذ البيت والأجزاء المعدنية للعربة .

قال توم : « لا تنادي عليهم . دعنا نتاجئهم » .

واسرع خطاه ، ثم عندما وصل الى الفناء أبطأ سيره . نطلع الى نصف العربة الأمامي ، التى كانت من قبل سيارة ماركة « هدسون سوبر سكس » .

كان مقوم جوودة الأب يكوم بتحميل صندوق السيارة . ـــقد توم على السيارة ، فتطلع اليه الأب للحظات ثم وصل فيله .

قال توم برقة : « أبي ؟ » .

فقال توم العجـوز دون أن ينظـــر اليه : « ماذا تريد ؟ » .

كان يرتدي قبعة ســـــوداء قذرة ، وقميصا أزرق مخطوطا من الجينز القديم . كان رجـــلا نحيفا قويا ، ساقاه قويتان قصيرتان . له لحية بيضاء . ويتسم وجهه وعيناه باللون البني .

رفع توم العجوز راسه ودفع بها الى الأمام ليرى بوضوح أكثر .

وقال : « تومي ! لقد عاد تومي اذن ! »

وبدت على وجهه نظرة خوف وقال : « هل هربت من السجن ؟ أن يكون لك مكان لتختبيء فيه هنا ؟ »

فقال توم : « كلا ، لقد أطلق سراحي لحسن السير والسلوك . وهاهي أوراقي » .

قفز توم العجوز فوق السيارة .

— « تومي نحن ذاهبون الى كاليفورنيا . كنت ساكتب لك خطابا ، لكنك وقد عدت ، بمكنك ان تأتي معنا » .

ونظر الأب من فوق كتفه .

وقال : « هيا ، نفاجيء أمك ، فقد انتابها احساس كئيب بأنها لن تراك مرة ثانية . هيا نذهب ونفاجئها .

قال توم : « تذكر بالطبع ، الواعظ كاسي ، يا أبي . قابلته على الطريق » .

تطلع الأب بصعوبة الى كاسي وسلم عليه .

— « مرحبا بك هنا ، ياسيدي » .

قال كاسي : « أنا سعيد لحضوري هنا ، وحمدا لله أن عاد ابنك الى موطنه » .

فقال توم للعجوز برقة : « موطنه » ثم تطلع عبر الطريق لحظة ثم قال : « كيف ستخبر والدتك ، اذهب اليها واقول لدينا ضيوف في حاجة للافطار » ؟

قال توم : « لا تفزعها » .

قال الأب : « هيا ، فانا اريد ان ارى وجهها عندما تراك . هيا بنا ندخل » .

كانت هناك رائحة خشب يحترق في النار ، وكذلك رائحة لحم مشوي ، وخبز ، وقهوة ثقيلة . خطا الأب الى الداخل ، ونظر توم الى امه . نظرت الى اعلى ، لكن الشمس كانت خلف توم . فهزت رأسها للاشخص غير الواضحة ، المقادم عبر البوابة » .

وقالت : « تفضلوا ، من حسن الحظ انني صنعت مزيدا من الخبز هذا الصباح » .

كانت امراة ثقيلة الوزن . لكنها لم تكن بدينة . وترتدي رداء طويلا فضفاضا . ذراعاها الحليتان عريضتان وتوبتان ، وتتحرك بخفة اثناء عملها . شعرها اشيب ووجهها مستدير .

لم تكن عينا الأم تتسمان بالحزن ، لكنهما عرفا طريق الحزن والألم . كانت مركز العائلة القوى ، وهي تدرك ذلك . فطالما قامت بحماية الأسـرة من كل الأحداث الضارة التي كانت تقع لهم . ولو ان الأم فقدت قوتها ، لتحطمت العائلة على الفور .

تقدم توم داخل الحجرة واتجه ناحية الفرن . اتسعت عينا الأم وسقطت من يدها عصا الفرن على الأرض .

وقالت : « حمدا لله . حمدا لله » ثم استبد الخوف بوجهها فجأة ، وقالت : « هل انت مطارد ، يا تومى ؟ هل هربت ؟ » .

— « كلا ، يا أمي . لقد أفرجوا عني ، لحسن السير والسلوك » .

اندفعت نحوه . ووجهها ملىء بالسعادة . وتحسست يدها الصغيرة ذراعه ووجهه . عض توم شفته . وما ان رأت الأم ذلك حتى ابتسمت فجأة .

قالت وهي تبكي : « كنا على وشك الرحيل دونك » .

التقطت عصا الفرن وعادت الى الفرن . اخرجت اللحم ، وضعت الأطباق .

قالت الأم للأب : « اذهب سريعا لتخبر الجد والجدة بعودة تومي » .

ثم توجهت بالحديث الى تومي دون أن تنظر اليه وقالت : « تومي ، أود أن أسألك سؤالا ؟ أعتقد انك لا تكره كل الناس ، اليس كذلك ؟ لانهم لم يعلموك ، فيما أظن ، الكراهية داخل السجن ! »

قال توم ببطء : « كلا — كلا ، كنت لفترة ما ، مشاكسا ، لكني بعد ذلك التزمت الهدوء وأصبح كل شيء على ما يرام . أنا لا أكره أي أحد . لكن عندما رأيت ما فعلوه ببيتنا .. » .

اقتربت منه الأم .

وقالت : « تومي ، ليس في استطاعتك مقاومة الملاك وحدك . لأنهم سيتصيدونك . لكنني أتصور ومئات الآلاف من المشردين أمثالنا ، طردوا من بيوتهم — لو أننا جميعا

قاومنا وقاتلنا ، فلن يكون باستطاعة الملاك أن يقهرونا . لكن الناس لا تعرف ماذا تفعل » .

قال توم : « أمي ، لم اسمعك تتحدثين على هذا النحو من قبل أبدا » .

كست وجهها مسحة من الصلابة . وقالت في هدوء : « لأنه لم يحدث لبيتي أن هدم على هذا النحو ، ولم تضطرني الظروف أبدا لبيع كل حاجياتي » .

عادت الى الموقد ، وأخرجت الخبز ووضعته في طبقين من الصفيح راقبها توم للحظة ثم اتجه ناحية الباب .

كان الجد والجدة قادمين ووراءهما الأب . الجد في المقدمة ، وهو عجوز هرم . كان قد استيقظ لتوه من النوم ويحاول أن يثبت أزرار بنطلونه أثناء سيره ، وخلفه كانت تسير الجدة .

صاح الجد : « هاهو ذا ، لقد كان مسجونا لقتله رجلا . وهو على صواب في ذلك ، لقد نفذ ما كنت أود أن أفعله . أين الأفطار ؟ »

قبل ان يهم الآخرون بالجلوس ، كان الجد قد تناول طبقه ، وامتلأ فمه بالخبز ومرق اللحم . وتطلعت الجدة بزهو ناحية توم .

طردت الام الذباب بعيدا عن مرق اللحم ، وقالت : « ليس لدينا مقاعد كافية للجلوس عليها . فليأخذ كل منكم طبقه ويأكل أينما يريد في الفناء أو اى مكان » .

صاح توم : « تعال يا كاسي ، تعال لنأكل » .

انشغل الجميع في الأكل ، ولم يكن هناك مجال للمزيد من الكلام حتى نفد الطعام والقهوة . وعندما انتهى توم وابوه من الأكل ، وضعا طبقيهما على الأرض واتجها ناحية السيارة نصف النقل .

رفع توم غطاء المحرك الضخم وأخذ يتطلع اليه ، ووقف الأب الى جواره .

ـ « الحرك » آل « فحص المحرك قبل أن تشتريها ، وقال انه على ما يرام » .

قال توم : « وماذا يعرف هو عن السيارات ؟ فما هو الا صبى صغير ؟ » .

ـ « كان يعمل باحدى الشركات . وكان يقود سيارة شحن العام الماضي . يعرف كل شيء عن محركات السيارات . بالتأكيد « آل » يعرف » .

سأل توم : « واين هو الآن ؟ واين روز اشارون ؟»

ـ « آل ، ذهب الى المدينة ليبيع شيئا ، واخذ معه روث ووينفيلد . اما اختك فهي عند عائلة زوجها كوني . بالطبع لم تكن تعرف انها تزوجت . كوني شاب لطيف . وهي حامل الآن في شهرها الرابع . وعلى مايرام » .

قال توم : « لكنها لاتزال طفلة . لقد وقعت كثير من الامور في تلك السنوات التي بعدت فيها عنكم . متى تعتقد انكم سترحلون الى الغرب ، يا والدي ؟ » .

ـ « ربما نستطيع غدا او بعد غد . ولقد اخبرني احد الاشخاص ان المسافة الى كاليفورنيا حوالي ألفي ميل . كلما اسرعنا في الرحيل كلما كان ذلك افضل . فنحن ننفق نقودا طوال الوقت » .

سأله توم : « كم معك من النقود ؟ فليس معي سوى دولارين » .

قال الاب : « بعني ، قمنا ببيع بعض الاشياء وعملنا في حقول القطن جمعنا مائتي دولار . دفعنا منها خمسة وسبعين دولارا ثمنا لتلك السيارة القديمة • يجب أن نتخلص من باقي الاشـياء المكومة في الفناء ببيعها . وبالتالي يمكن ان يكون معنا حوالى مائة وخمسين دولارا عندها نبدأ الرحيل .

كانت الشمس قد ارتفعت فوق الرؤوس في تلك اللحظة ، وارتسم ظل السيارة الاسود على الأرض . كانت تنبعث من السيارة رائحة زيت سـاخن ورائحة الطلاء . جذب الاب طرف قبعته اكثر فوق جبينه .

قال توم : « هيا نقوم بتحميل السيارة • ثم اذهب الى المدينة بالسيارة ، واعود بـ « آل » والطفلين . لقد تعلمت قيادة الشاحنات في السجن » .

قال الاب : « عظيم . هيا بنا نبدأ . فلابد ان نرحل سـريعا » .

الفصل الرابع

الاستعداد للرحيل

في وقت متأخر بعد الظهر ، عاد توم بالسيارة الى الفناء ، وآل يجلس الى جواره في كابينة السيارة ، بينما يقف الآخرون في الصندوق الخلفي . ورغم أن روث التي تبلغ الثانية عشرة ، وكذلك وينفيلد الذي يبلغ العاشرة ، كانا متعبين الا انهما كانا مبتهجين . أما روزا شارون فكانت تستند على زوجها " كوني " بحرص ، فقد كانت تفكر في طفلها ، وارتسمت ابتسامة على وجهها .

كان الحزن والغضب يعتور قلب الرجلين ، لانهما

باعا كل شيء مقابل ثمانية عشر دولارا فقط ، رغم انهما يعلمان انها تساوي اكثر من ذلك ، لكن الحاجة الملحة للنقود املت عليهما ذلك .

كان صوت المحرك عاليا . وعندما اوقف توم السيارة زعق صوت الفرامل ، وقفز الاخوة من فوق السيارة ، ووقفوا يتطلعون الى اخيهم الاكبر توم ، الذي قتل رجلا . وقام كوني بمساعدة زوجته روزا شارون في النزول الى الارض . ابتسمت واتجهت الى البيت للقاء امها .

بعد ذلك وبتلقائية وهدوء اجتمعت الأسرة عند السيارة . فقد اصبح هذا المكان من اكثر الاماكن اهمية ، حيث تلتقي الاسرة . فلقد حل الموات بالبيت والارض ، في حين اصبحت هذه السيارة القديمة مركز الالتقاء الحيوي للعائلة . تمشى الاب حول السيارة . ثم جلس القرفصاء والتقط عصا صغيرة وشرع يرسم دوائر في التراب .

خرج الجد من البيت وجلس مستندا بعناية الى

جانب السيارة . في حين جلس توم وآل وكوني في صف مواز للأب مكونين نصف دائرة .

ووقفت النســــاء خلف الرجال ، واخذ الأطفال يداعبــــون التراب بأقدامهم دون جلبة . اما كاسي الواعظ ، فقد وقف بعيدا عن الانظار خلف البيت ، لأنه لم يكن فردا من افراد العائلة ، وهذا اجتماع عائلي .

خاطب الأب الجميع بصوت هادىء وقال : « ان كل ما لدينا من نقود ، هو مائة وخمسون دولارا . و «آل» يقول اننا في حاجة الى اطارات جديدة للسيارة » .

تحدث « آل » ببطء وعناية ، لأنه لم يسبق له أن تحدث في اجتماع عائلي .

ــ « السيارة قديمة ، ولا تبدو على ما يرام . لكنني فحصت كل جزء فيها قبل أن نشتريها . وهي من طراز منتشر . وبالتالي يمكننا الحصول على قطع الغيار بثمن رخيص . وسوف يكون من الســـهل الحصول على الاطارات كذلك » .

قال توم : « لقد تعلمت شيئا عن ميكانيكا السيارات في السجن . وكل ما قام به آل صحيح . والآن لدي شيء أود ان اقوله لكم ، كاسي ــ الواعظ ــ يريد ان يذهب معنا الى الغرب . وهو انسان طيب » .

قال الأب : « لكنني اتساءل ، هل با مكاننا ركوب السيارة جميعا ، والواعظ كذلك ؟ وهل في امكاننا اطعام فم آخر ؟ هل يمكن يا زوجتي ؟ » .

قالت الأم بوضوح : « المسألة ليست « هل بامكاننا ؟ » بل « هل نحن على استعداد ؟ » ، وانا اقول اننا على استعداد . فعائلة جوود لا يمكن ان ترفض تقديم الطعام او ركوب السيارة لأي انسان يطلب ذلك » .

نهض توم ونادى : « كاسي ، كاسي ! » .

جاء كاسي بسرعة من خلف البيت وجلس القرفصاء مع الآخرين . لقد تم قبوله ليصبح واحدا من افراد الاسرة .

قال الأب : « ينبغي ان ننهي كل شيء بسرعة ، استعدادا للرحيل . كلما اسرعنا كلما كان ذلك افضل .

فهم يقولون ان المســـــافة الفا ميل . يا له من طريق طويل ! » .

قال آل : « وما الذي ننتظره اذن . ليس هناك من شيء نفعله هنا . فلماذا لا نمضي ؟ يمكننا ان ننام في الطريق » .

نهض الاب وقال : « ســـنرحل الآن ، هيا نجمع حاجياتنا . فسوف يستغرق تحميل السيارة بضـــعة ساعات . هيا ، يا رجال » .

كان الظلام قد حل في تلك اللحظة . وبدات دوائر من الاضواء المنبعثة من الفوانيس تتحرك في الفناء . أحضر الرجال كل ما لديهم من اشياء ووضعوها بجوار السيارة .

احضرت روزا شارون ملابس الاســرة . واتجه توم الى مخزن الآلات واحضر الآلات المتبقية . ثم ما لبثت روزا ان احضرت بعض المراتب والبطاطين المتهرئة

دخل توم المطبخ يحمل فانوســه .

قال : « رائحة لحم ! » .

تطلعت الأم الى توم وابتسمت .

— « لابد أن تأكلوا شيئا أثناء السفر ! » .

قال توم : « ماذا تريدين أن آخذ من هنا ؟ » .

تطلعت الأم بسرعة في ارجاء المطبخ . وقالت : « السلة ، بكل ما فيها من أدوات نستعملها في تناول الطعام ، الأواني الكبيرة والأوعية . خذ السلة . أما انا فسآخذ باقي الأشياء بعد أن انتهي من اعداد الطعام » . والتقطت الأم الفانوس وسارت متثاقلة الى حجرة النوم .

قال الواعظ : « تبدو متعبة . ربما تكون مريضة » .

ما أن سمعت الأم كلماته ، حتى انفرجت تجاعيد وجهها ... . والتمعت عيناها وتدرت أكتافها .

تطلعت في ارجاء الحجرة ، ووضعت الفانوس على الأرض . ثم جلست بجوار صندوق صغير من الخشب ، وهو الشيء الوحيد الذي بقي في الحجرة . داخل

الصندوق كانت توجد خطابات ، وصور فوتوغرافية ، وقصاصات جرائد ، وحلق وخاتم صغير من الذهب .

وضعت الأم الحلق والخاتم داخل مظروف ، دسته في كيسها . وتطلعت الى الأوراق والصور للحظات . ثم وضعتها ثانية داخل الصندوق وأغلقته بعناية .

اتجهت الى المطبخ ثانية ووضعت الصندوق فوق النار ، توهجت النيران لمدة دقـــــائق ، وتلاشى الصندوق .

* * *

هناك في الفناء المظلم أكمل الأب وآل تحميـــــل السيارة جعلوا الحمل مسطحا بقدر الامكان . وضعوا المراتب فوق الحمولة ، ثم ألقوا عليها بمشـــمع كبير وربطوه الى جسم السيارة .

قال آل : « لو حدث أن امطرت ، فسوف تضـــع الغطاء فوق الهيكل الحديدي لصندوق السيارة . ومن ثم يحتمي الجميع من البلل .

نظر آل الى والدته وسألها : " هل أنت سعيدة بالرحيل ؟ " .

— " نعم ، فالوضع هنا أصبح صعبا . وسيكون مختلفا هناك . فرص عمل كثيرة ، منازل رخيصة صغيرة نعيش فيها ، أشجار البرتقال تنمو في كل مكان " .

مع أول ضوء النهار ، كان كل شيء قد تم . والطعام جاهز أيضا .

وقف أفراد العائلة أمام باب البيت يرتجفون قليلا وهم يأكلون بسرعة .

قال آل : " أعتقد أنه يجب أن نوقظ جدتنا وجدنا " .

أصبح الضوء أكثر وضوحا الآن . دخل توم البيت وعاد بصحبة الجد .

وقال : " لم يكن نائما . أعتقد أنه مرهق قليلا " .

قال الجد : ليس بي أي شـــيء ، كل ما فـــي الامر ، تني لن ارحل » .

قال الاب : « لن ترحل ؟ لماذا ، وكلنا على استعداد؟ لابد ان نرحل ، فلم يعد لنا مكان نعيش فيه » .

قال الجد : « ولو ، ارحلوا انتم بدوني ، صحيح ان هذا المكان سيىء ، لكنه موطني . سابقى هنا ، حيث انتمي » .

قال الأب باحباط : « اصغ الى الآن ارجوك ، يا ابي .... » .

لمس توم كتف والده وقال له : « ابي ، تعال معي الى داخل البيت . فانا اود ان اقول لك شيئا ، وانت كذلك يا أمي » .

سأله توم : « الديكم شيء من الويسكي ، يا أبي ؟ »

ــ « ولا قطرة » .

قالت الأم : « توم ، لدي نصف زجاجة دواء .

كنت اعطي منها لوبنفيلد : لينام عندما يصاب بألم في أذنيه . هل تفيد في شيء ؟ » .

قال توم : « ممكن . جهزي غدها من القهــــوة الثقيلة ، ثم اضيفي عليها كل الدواء » .

وقف الجد عند مدخــل البــاب وقال : « أين افطاري ؟ » .

دخل الى البيت وشـــــرب القهوة ، وبدأ يأكل . سرعان ما ثقلت رأسـه ، وثبتت ذراعاه على المنضدة ، لقد استغرق الرجل العجوز في نوم عميق .

الآن اصبحوا على اسـتعداد . وكانت الجدة قد ارتدت ملابسها ايضـــا . ووقفت العائلة تتطلع الى الأرض في ضوء الصباح الشاحب .

قال توم : « هيا ، نحمل الجد الى السيارة » .

رفعوا الرجل . وعندما وصلوا الى الســيارة ، صعد توم وآل الى ظهرها ، وتناولا العجوز برقـة وارتداد فوق الحمولة .

قال الأب لزوجته : « انت والجدة تجلسان في كابينة السيارة مع آل لفترة . ثم نستبدل الاماكن فيما بعد » .

صعدوا الى كابينة السيارة ، بينما تسلق الآخرون ظهر السيارة واستقروا فوق الحمولة : كوني وروزا شارون والأب ، وروث ، ووينفيلد ، وكذلك توم والواعظ .

ادار آل محرك السيارة وتحركت عبر الفناء ومضت فوق التل الصغير ، في حين كان الغبار الأحمر يثور من حولهم .

قال آل : « يالها من حمولة ثقيلة » .

حاولت الأم النظر خلفها فلم تستطع لأن الحمولة كانت تعوق الرؤية ، فاعتدلت في جلستها ونظرت الى الأمام ، لكن عينيها كانتا مجهدتين للغاية .

كانت حقول القطن تحد الطريق ، والسيارة تمضي ببطء عبر الطريق المترب ، باتجاه الطريق السريع المؤدي الى الغرب .

الفصل الخامس

الاتجــاه غربــا

كانت السيارة بحمولتها الثقيلة تمضي ببطء تجاه الطريق السريع عند « سالى سو » ثم انحرفت ناحية الغرب ، على الطريق المرصــــوف ، حيث قاد آل السيارة بسرعة خمسة وثلاثين ميلا فى الســـاعة • مروا بمدينة تلو مدينة والشمس تعلو رؤوسهم ، وفى نفس الوقت تزيد من حرارة التراب الاحمر بالحقول •

قاد آل السيارة عدة ساعات • توحد مع السيارة بحيث أصبح واعيا لأى صوت غير عادى يصدر عنها ؛ لان ذلك يعنى ان هناك خللا ما . وكانت عيناه تتطلعان

الى الأمام ، ومن حين الى آخر ، تتوجهان الى لوحة المؤشرات امامه .

قال آل : « صوت المحرك عال . أرجو أن تكون السيارة على ما يرام ، لكن ما أخشاه الا تستطيع صعود التل بمثل هذه الحمولة ، هل توجد تلال كثيرة في المسافة بين هنا وكاليفورنيا ، يا أمي ؟ » .

قالت الام : « سمعت أن المنطقة كلها تلال ، بل جبال أيضا ، جبال غالبة . لا يمكن أن نعبرها بكل تلك الحمولة » .

سألها آل : « هل انت خائفة يا امي من الذهاب الى مكان جديد ؟ هل تخشين الا يكون بنفس الصورة التي تخيلتاها ؟ » .

انسحبت عينا الام واخذت تفكر في هدوء .

ـــ « أنا لست خائفة الى حد كبير . فأمامنا فرص عديدة للحياة ، من الممكن أن نحياها ، لكن في اللحظة الراهنة ، ليس أمامنا ســوى الطريق والرحلة .

يـسـرعان ما يطلب الجميع الطعام . هذا كل ما افكر
فيه ! .

ارتفعت الشمس الى كبد السماء . وبدأ البخار
يتصاعد من مبرد السيارة ازاء غليان الماء بسـبب
الحرارة .

اقتربوا من احد الاكواخ على جانب الطريق امامه
صحنان للبترول ، وصنبور مياه وخرطوم . عندما
توقف آل بجوار الخرطوم ، خرج رجل سمين غاضب
من الكوخ .

سألهم : « هل تنوون شراء اى شىء ؟ امعكم
نقود ؟ »

ـــ « بالتأكيد معنا نقود . نحن فى حاجة الى
الوقود ! »

قال الرجل : « لابأس ، اذن . يمكنكم استخدام
صنبور المياه . الطريق مليء بالبشر ، وعلى المرء ان
يكون حريصـــا . يتوقفون هنا فقط ، لاخذ الماء او
سرقة ، ولا يشترون اى شىء » .

امسك وينفيلد الخرطوم وشرب منه وصب ماء على راسه ووجهه .

واصل الرجل السمين كلامه : « لا ادرى ماذا جرى . كل يوم تمر بي خمسون او ستون سيارة . الناس جميعا ينزحون الى الغرب . يحملون معهم كل متعلقاتهم ، الى أين هم ذاهبون ؟ وما الذى يفعلونه ؟

قال توم : « يفعلون نفس ما نفعله نحن . يبحثون من مكان يعيشون فيه . يحاولون الحصول على عمل . هذا كل ما في الامر . وربما تصبح انت نفسك على الطريق ذات يوم ؟ .

رفع آل غطاء المحرك ، واخذ يفحص زيت المحرك . ملأ الرجل السمين خزان الوقود . وزود توم مبرد السيارة بالماء من الخرطوم .

وعاد الجميع الى السيارة ببطء .

قال توم : « اصعد الآن يا آل الى ظهر السيارة سوف اتولى انا القيادة لفترة » .

قال آل : « لاباس . لكن راقب الزيت ، وقد السيارة بهدوء ، فالحمولة اكثر من اللازم » .

ضحك توم . وقال : « سأراقب كل شيء ، اطمئن » .

كانت الام تجلس الى جوار الجدة في كابينة القيادة اخذ توم مكانه وادار المحرك . وكانت الشمس في طريقها للمغيب امام نواظرهم . فجذب توم طرف قبعته على عينيه .

وصلوا الى مدينة اوكلاهوما سيتي — وهي مدينة كبيرة . وواصل توم القيادة ، واستيقظت الام واخذت تنظر الى الشوارع الفسيحة . كما اخذ باقي افراد الاسرة يتطلعون من على ظهر السيارة الى المتاجر الكبيرة والمباني العالية والمباني الحكومية . ثم بدا حجم المباني يقل ، عندما اصبحوا عند حدود المدينة .

كان توم يقود السيارة ببطء وحذر داخل شوارعها المزدحمة ، حتى وصلوا الى الطريق السريع ٦٦ —

طريق الغرب السريع ـ في الوقت الذي كانت فيه الشمس قد غابت .

كان الطريق السريع ٦٦ ، هو الطريق الرئيسي الذي يقطع امريكا الى الغــرب ، واتخذه النـــاس ممــرا لهم . وهو طريق متميز خال من الحرارات والغبار ، وبعيد عن الفيضانات والرياح . كان الطريــق ٦٦ هو الطريق الام : طريق الهروب .

قال توم : « ستظل تسير على هذا الطريق طوال رحلتنا » .

قالت الام : « ربما يكون من الافضل أن نجد مكانا نتوقف فيه قبل غروب الشمس . اذ يتحتم على طهى بعض اللحم وعمل خبز وهذا يتطلب وقتا » .

ثم قالت لتوم : « لقد افرجوا عنك لحسن السير والسلوك ، اليس كذلك ؟ لكن ماذا يحدث لك عندمـــا تعبر حـــدود الولاية ؟ امن الممكن ان يعيدوك الى السجن ؟ هـــل اذا عبرت الحدود ، تكون قد ارتكبت جريمة ؟ » .

قال توم : « لا تخشي شيئا يا امي . لقد فكرت في ذلك . لو قبض على لارتكاب شيء ما — فمن الطبيعي أن يعيدوني الى السجن . واذا لم ارتكب خطأ ، فلن يحدث ذلك » .

عندما عبروا مدينة صغيرة في طريقهم ووصلوا الى أطرافها ، اشار توم الى الامام وقال : « هناك بعض الناس اقاموا معسكرا ! يبدو انه مكان جيد » .

ابطأ سرعة السيارة ، وتوقف على جانب الطريق .

كانت هناك سيارة قديمة تقف جانبا خارج الطريق السريع بجوارها خيمة صغيرة . ويتصاعد الدخان من مدخنة موقد مثبت بجوار الخيمة . كان غطاء محرك السيارة مفتوحا ، وهناك رجل في منتصف العمر يفحص المحرك . تطلع الى سيارة آل جوود ، وعيناه كلها قلق وغضب .

اطل توم من نافذة السيارة وقال : « أهناك ما يمنع من التوقف هنا اثناء الليل ؟ ولك كل الحق في ان ترفض وجود جيران لك ، أو تقبل » .

ابتسم الرجل .

ــ « لا شيء يمنع بالتأكيد أخرج من الطريق ، وأنا فخور بوجودكم » . ثم نادى : « سارى ، هناك بعض زملاء الطريق ، تعالى لتقابليهم » .

خرجت امرأة ببطء من الخيمة بشعرتها جبانة ، وعيناها معتمتان من الألم · كانت صغيرة ونحيلة · لكن عندما تكلمت ، كان لها صوت جميل .

قالت : « أهلا بكم · مرحبا بكم أيها الناس الطيبون » .

الفصل السادس

وفاة الجد

ركن توم السيارة على جانب الطريق بجوار السيارة الأخرى . وهبطت الأسرة من فوقها بسرعة . بدأت الأم تعمل في همة ، وفكت رباط حاجياتها وأنزلتها من فوق السيارة .

قالت للأطفال : « اذهبوا إلى هناك واحضروا لنا ماء وأنتما ساعداني في قطع الخشب واحضروها فورا ، لنشعل بها نارا » . وانطلق الأطفال .

قال آل وهو يتطلع إلى السيارة الأخرى : « أنتم

من كانسـاس ، ولستم من اوكلاهوما ، لأن لهجتكم مختلفة » .

قالت ساري : « قد تختلف لهجاتنا ، لكننا في النهاية من بلد واحد » .

ودون سابق انذار بدأ الجد يبكي ، اندفعت اليه الام واحاطته بذراعيها .

قالت ساري : « ادخلوه الى خيمتنا . بامكانه ان يستريح قليلا » .

ساعدت الام الجد في الدخول الى الخيمة ، ثم خرجت ونظرت الى كاسي .

قالت : « الجد مريض . تعال والق عليه نظرة » .

كان الجد راقدا على ظهره . عيناه مفتوحتان ، ويحملق الى أعلى ، ووجهه احمر ، ويتنفس بصعوبة .

وضع كاسي يده على جبهة الجد . وبينما كان يتطلع الى وجهه البربد اللون ، دخلت الام .

قالت : « ماذا به ؟ »

ـ « اعتقد انه سيصاب بنزيف فى المخ » .

صاحت الجدة خارج الخيمة : « أريد أن أراه . انه ليس مريضا ، لكنه متضايق بعض الشيء » .

خرج كاسى من الخيمة .

وقال : « انه ليس متضايقا ياجدة ، لكنه مريض . مريض فعلا » .

قالت الجدة : « لماذا لاتصلى من أجله اذن ؟ الست واعظا ؟ » .

بدأ الجد يصارع الموت . وفجأة انتفض جسده ورقد ساكنا .

بدأ كاسى صلاته : « أبانا الذى فى السماء .. » .

وانبعثت من فم العجوز تنهيدة طويلة .

ـ « اليك يعــــــود ... بما قدمت يداه على الارض ... » .

صاحت البجعة : « آمين ! » .

وتوقفت أنفاسه .

تردد كاسي وهو يركع إلى جواره : « آمين ! » .

أخرجت الأم البجعة من القبعة . وتحلقت الأسرة حولها تراقبها . وهي جالسة في اعتداد . ثم ألقت رقبتها على الأرض وغطت وجهها بقوادمها .

قال الأب : « شكرا لكم أيها الناس الطيبون . فقد ساعدت في شفائها » .

قال ويلسون : « بفضل مساعدتكم » .

قال آل : « سأقوم أنا وتوم بإصلاح سيارتكم » .

قال الأب : « يجب أن نفكر فيما سنفعله بالبجعة ، فليس معنا سوى مائة وخمسين دولارا » ولكنا أيضا بيطاره سوف يأخذون أربعين دولارا لفحصه » .

سأل آل : « وماذا سوف تفعل ؟ » .

قال الأب بهدوء : « سوف نترك البجعة هنا . ولكني

بياناته في ورقة نضعها في زجاجة ندفنها معه . بيانات تفصح عنه ، ولماذا دفن هنا » .

احضر الرجال الادوات للحفر . وقام الاب بوضع علامة على الارض وقامت الام بغسل الجثة وكتب توم بياناته بعناية على قطعة من الورق .

عندما اصـــبح كل شيء جاهزا ، وقفت العائلتان حول القبر . والقى كاسي موعظة قصيرة .

وردد الجميع : « آمين » .

عادت النســـاء الى الخلف ناحية النار لاعداد العشاء . في حين قام الرجال بردم الحفرة بسرعة .

ركعت روزا شـــارون بجوار النار وتطلعت الى أمها .

ـــ « انا مرتعبة يا امي ، هل ســـيؤذي ذلك الجنين ؟ »

قالت الام : « مرتعبة ؟ لابد ان تتماســكي خلال الاشهر القادمة . انسي نفسك والجنين لفترة » .

عندما انتهى طهى اللحم والبطاطس ، جلست العائلتان على الأرض لتناول الطعام ، يخيم عليهم الصمت ويحملقون فى النار .

سألت الام عائلة ويلسون : « كم مضى من الوقت ، وانت وعائلتك على الطريق ؟

قال ويلسون : « الحظ لم يكن حليفنا . لقد مضى علينا ثلاثة اسابيع ونحن على الطريق . السيارة اخرتنا ، تسير وتتوقف حالتها تزداد سوءا بمرور الوقت .

قال آل : « اعتقد انه بامكانى اصلاحها »

قال الاب : « يتعامل جيدا مع السيارات » .

ـــ « بالتأكيد . انا ممتن جدا ، صحيح اننا نلاقى كثيرا من المتاعب فى ذهابنا الى كاليفورنيا ، لكنها تستحق . رأيت اعلانات عن احتياجهم لاناس لجمع الفاكهة ، باجور عالية ايضا ، خلال عامين يمكن للانسان ان يشترى قطعة ارض ، ويصبح لديه مكان يملكه ... » .

قال الأب : « لقد رأينا هذه الاعلانات . معى واحد منها » : « مطلوب عمال فى كاليفورنيا لجمع البازلاء . اجور جيدة طوال الموسم . مطلوب ٨٠٠ عامل » .

تطلع ويلسون فى الاعلان .

قال : « لم اقرأ هذا الاعلان . لكن الا تعتقد انهم ربما حصلوا على الثمانمائة عامل » .

قال الأب : « لكن هذا جزء صغير من كاليفورنيا . فهى الولاية الثانية من حيث الحجم فى امريكا » .

اتجه توم وكان ناحية الرجلين .

قال توم : « كنا نفكر يا ابى ، بان حمولة سيارتنا زائدة » .

فى حين ان سيارة ويلسون ليست كذلك . وبالتالى يمكن لبعض افراد اسرتنا ان يركبوا معه ، ونأخذ نحن بعض حاجياتهم فى سيارتنا . وهذه الحالة يمكن

للسيارتين اجتياز منطقة التــلال • على ان تســـير السـيارتان معا » .

قال ويلسون : « لم يبق معي سوى ثلاثين دولارا فقط . ولا اود أن اكون عبئا عليكم » .

قالت الام : « لن تكون عبئا علينا ، لقد ساعدتنا عندما مات الجد » .

ابتسم ويلسون في خجل واطرق ببصــــره الى الارض .

قالت الام الى سارى : « سوف تصلون الى هناك والآن هيا ، كي تنام قليلا » .

خبت النار ـ وعلى الطريق السريع كانت تمضي بعض السيارات القليلة ، والشاحنات التي كانت تحدث ضجة كبيرة .

سرعان ما هدأت العائلتان ، واستغرقتا في النوم ، فيما عدا سارى ويلسون التي ظلت راقدة متيقظة ، وعيناها مفتوحتان على سعتهما بسبب الالم .

الفصل السابع

تعطل السيارة

انطلقت العائلتان ، عائلة جورد ، وعائلة ويلسون بالسيارتين على الطريق متجهين نحو الغرب . اجتازوا حدود الولاية وتركوا اوكلاهوما خلفهم ، وساروا عبر تكساس .

بعد ثلاثة ايام اصبح الطريق السريع مأواهم غيروا أسلوب حياتهم تماما . وتدريجيا تعودوا على أسلوب حياتهم الجديد . كانوا يقطعون المسافات الشاسعة ميلا بعد ميل . حتى وصلوا آخر حدود تكساس . وطالعتهم نيو مكسيكو بجبالها .

كانت الجبال تقف شـــامخة على مبعدة تناطح السماء . وعجلات السيارتين تدور وتحور تنهب الطريق ، والمحركات حرارتها تزداد وبتصاعد منها بخار الماء .

كان آل يقود سيارة عائلة ويلسون ، والى جواره تجلس امه ، تليها روزا شارون . وكان يحافظ دائما على المسافة بينه وبين السيارة الاخرى . كان الهواء ساخنا ، والجبال تتصدع من الحرارة .

كانت الام تجلس ويداها مطروحتان فى حجرها ، فى حين كانت روزا شارون تشد نفسها لتتفادى حركة واهتزاز السيارة ، ولا يشغل ذهنها سوى طفلها الذى لم يولد .

قالت روزا شارون : « امى ، عندما تصل الى هناك ، كوني مطمئنة ، فقد خطط كوني وأنا كل شيء . سوف يعمل كوني فى أحد المحلات التجارية ، أو احد المصانع . كما سيدرس فن الراديو ، من منازلهم ، وبذلك يمكن ان يكون لديه محل خاص به . عمل لطيف

تقلب ومستقبله مضمون . سيكون لدى الطفل ملابس جديدة عند ولادته » .

قالت الأم : « نحن لا نريدكم أن تبتعدوا عنا » .

في تلك اللحظة كان آل يجلس على مقعد القيادة متخشبا ، ويمسك عجلة القيادة باحكام ، فقد سمع بعض القرقعة في محرك السيارة . وكلما زاد السرعة زاد الصوت . ضغط على تغيير السرعة وانتحى بالسيارة جانبا على الطريق .

وعلى الفور توقفت السيارة التي تقل خلفها ببطء ، نزل توم من السيارة ونادى : « ماذا حدث يا آل ؟ » .

زاد آل من سرعة المحرك حتى جعله يزار .

وقال : « انصت الى المحرك » . كان صوت القرقعة عاليا وواضحا .

ــ « انه عمود الادارة ، اليس كذلك ؟ » .

قال توم : « يبدو ذلك » .

فسأل ويلسون : « هل ذلك أمر خطير ؟ »

قال توم : « نعم » .

انتاب آل نوع من الضيق ، فقد اعتقد أن ما حدث للسيارة كانت نتيجة لخطئه .

فقال توم : « يجب أن نخرج عمود الادارة ونحصل على واحد جديد . ثم نقوم بتركيبه . سيستغرق ذلك يوما بطوله . وغدا الاحد ، لا يمكننا شراء أي شيء ، وليس معنا الأدوات اللازمة لعمل ذلك » .

قال ويلسون : « انها غلطتي ، فسيارتي القديمة هذه دائما ما كانت تسبب في المتاعب . لماذا لا تمضون أنتم في طريقكم ؟ وسأبقى أنا وسارى هنا » .

خلع توم قبعته ومسح جبهته .

وقال : « لدي فكرة . كلما وصلنا الى كاليفورنيا بأسرع وقت ، كلما كانت الفرصة متاحة لكسب أسرع .

تسيارتك تسير ضعف سرعة السيارة النصف نقل ، فلنخفف حمل السـيارة نصف النقل بعض الشيء وتنطلقون انتم ، وسابقى هنا انا وكاسى لاصـلاح السيارة ، ثم نلحق بكم » .

قالت الام بقلق : « وكيف سيتسنى لكما معرفة مكاننا ؟ » .

قال توم : « لا تشغلى بالك سوف نعثر عليكم ، فكاليفورنيا ليست العالم اجمع » .

قال الاب : « لاباس ، ومن الأفضل أن ننطلق الآن . فمن الممكن ان نقطع مائة ميل قبل حـلول الظلام » .

خطت الام خطوتين لتقف امامه وقالت : « ان اذهب » .

وهنا توجه الاب تماما ، وقال : « ماذا تقصدين ؟ ومن ذا الذى سيرعى شئون العائلة ! » .

توجهت الام ناحية السيارة والتقطت عصا رافعة

السيارة ، وأمسكتها بيدها ، وزمت شــــفتيها في غضب .

وقالت : « السبيل الوحيد لتحملني على الذهاب هو أن تضربني ، هيا ، حاول أن تفعل ذلك » .

تطلع الاب حوله وقد أسقط في يده .

راقب الجميع الأب ، متوقعين أن يفقد أعصابه ، أو أن يصرخ او أن يضربها . لكنه امسك أعصابه ولم ينفعل . وتدلت يداه في استسلام الى جانبيه . تيقن الجميع أن الأم انتصرت . وتأكدت الأم من ذلك أيضا .

قال توم : « ماما ، ماذا جرى لك ؟ »

قالت : « أنت لم تفكر بشكل جيد . أما أنا فقد فكرت . ما الذي بقي لنا في هذا العالم ؟ لم يبق لنا سوى العائلة . النقود لن تكون ذات فائدة لو تشتتت العائلة . أنا لا أخشى شيئا عندما نكون جميعا معا . وأنا على استعداد لأن أضرب أي أحد بهذه العصا لو أن عائلتي تشتتت » .

قال توم بهدوء : « لكننا يا أمي ، لا نستطيع ان نعسكر هنا . فلا ظل ولا ماء » .

قالت الام : « لابأس . نتحرك من هنا ونتوقف في اول مكان يوجد به ظل وماء ، بعد ذلك تعود السيارة نصف النقل وتأخذك الى المدينة » .

نظر اليها توم باستسلام .

ــ « لقد انتصرت يا امي .. دعي هذه العصا جانبا قبل ان تصيبي بها احدا . آل ، خذ الجميع بالسيارة حتى تجد مكانا تعسكر فيه ، وربما تحاول تلك عمود الادارة الليلة ، طالما اليوم هو السبت . ناولني الادوات لأبدأ العمل » .

قبل ان تبتعد السيارة نصف النقل كان توم وكاسي قد شرعا سويا في العمل في السيارة القديمة .

بعد فترة تحدث كاسي الى توم « اتعرف . كنت طوال الرحلة اراقب الطريق . هناك مئات العائلات ـــ متجهة نحو الغرب . هل لاحظت ذلك ؟

- قال توم : « نعم ، اهل الولاية جميعا ، يرحلون ! » .

— « لكن ، من المحتمل الا يحصل كل هؤلاء الناس على عمل هناك ؟ » .

قال توم : « انا لا افكر فى ذلك الآن ، وانما افكر فى شىء واحد فقط ؟ » .

ثم وقف ، وقال : « اليس ذلك آل القادم نحونا ؟ »

توقفت السيارة نصف النقل بجوار السيارة الاخرى ونزل منها آل .

قال : « لدينا مشكلة ، فالجدة بدأت تولول وتتحدث الى الجد . لم تعد تعى اى شىء . لكننا وجـــدنا معسكرا ، مقابل نصف دولار فى اليوم . الجميع متعبون ومن الصعب ان نواصل المسيرة » .

اخرج آل حقيبة من الورق من على مقعد السيارة .

— « ارسلت أمى لكما بعض الخبز واللحم ، كما احضرت لكما شيئا من الماء » .

قال كاسي : « انها لا تنسى احدا ابدا . سانتظر انا هنا ، في حين تذهبان انتما الاثنان الى المدينة ، قبل ان يتأخر الوقت .

* * *

سمع كاسي صوت السيارة نصف النقل وهي عائدة . فخرج من سيارة عائلة ويلسون عندما كان آل يتوقف بالسيارة وقال : « لم أتوقع عودتكما بهذه السرعة ! » .

قال توم : « لقد حالفنا الحظ ، يمكننا الآن تركيب عمود الادارة » .

قام الرجال الثلاثة بالعمل سويا . ولحسن الحظ كانت قطعة الغيار مناسبة وتم تركيب باقي الأجزاء . وقام توم بربط الصواميل .

دلف آل الى السيارة وأدار المحرك . وظل به حتى زأر .

قال توم : « تمام ! ابطل المحرك . لقد نجحنا . فاين اللحم ؟ »

مسح الرجال الثلاثة ايديهم فى بنطلوناتهم واكلوا اللحم وشربوا ماء من الزجاجة .

قال توم : « هيا بنا الآن نذهب الى المعسكر . سأقود انا السيارة ، وانت السيارة النصف نقل ، يا آل » .

* * *

على ارض المعسكر كان يوجد بيت خشبى ، تتناثر حوله نصف دستة من الخيام تقف السيارات بجوارها .

كان صاحب المعسكر يجلس على كرسى امام البيت وبجواره فانوس ، اوقف توم السيارة على جانب الطريق وسار عبر البوابة . رأى مجموعة من المقيمين فى المعسكر يتحلقون حول ضوء الفانوس .

سألهم صاحب المعسكر : « اتريدون المبيت هنا ؟ » .

قال توم : « كلا . أهلنا هنا . ابى وأمى » .

فقال صاحب المعسكر : « لو أردتم أن تعسكروا هنا ، تسيكلفكم ذلك نصف دولار » .

قال توم : « بامكاننا أن ننام على جانب الطريق ولن يكلفنا ذلك شيئا » .

ـــ « لحبنا قانون يحرم النوم على الطريق في هذه الولاية ، لماذا مر المامور فسوف تقعون فى مشاكل » .

تساله توم : « بالمناسبة ، هل هو شقيتك ؟ »

ـــ « كلا ، ليس شقيقى . كما أننى لا اقبل ان تكلمني بهذه الطريقة » .

فقال توم : « كما أنه ليس لك الحق فى أخذ نصف دولار منى كذلك » .

قال المالك فى صوت خفيض : « لكن ينبغى علينا جميعا ان نكسب عيشنا » .

جاء الأب وقال : « لقد كنا نعيش حياة كريمة .

كان لدينا مكان نسكن فيه حتى رحلنا . نحن لسنا مسافرين بغرض التنزه . نحن ذاهبون الى الغرب . لنحصل على أجور جيدة هناك » .

كان هناك رجل نحيف يرتدي ملابس رثة يحدق في ابي . ضحك ضحكة غبية بصوت عال وقال : « من اجل جمع البرتقال ، او الخوخ ؟ » .

قال ابي : « سوف نقوم بأى عمل » .

ضحك الرجل ذو الثياب الرثة ثانية .

التفت اليه توم وقال له : « ما الذى يضحك فى ذلك ؟ » .

— « لأن الجميع متوجهون الى كاليفورنيا . وانا عائد من هناك . لقد كنت هناك » .

التفتت كل الوجوه اليه بسرعة . وتسمرت اجساد الرجال فى مكانها .

قال الرجل : « انا عائد الى بلدى واعلم انني

ساماني من الجوع – لانه من الافضل لي أن اعاني الجوع في بلدى على ان اعانيه في اى مكان آخر » .

قال الاب بغضب : « لكن الاعلان الموجود معي يقول انهم في حاجة الى مزيد من الرجال » .

قال الرجل : « لقد رايت ذلك الاعلان . أن صاحب هذا الاعلان يطلب ثمانمائة عامل . لكنه طبع خمسة آلاف اعلان ، وربما قراه عشرون الفا » .

صاح الاب : « لكن ذلك شيء غير معقول ! » .

– « لكنه معقول بالنسبة للرجل الذى طبع هذه الاعلانات .. لانه استغل حاجة الناس الى الطعام . لذا فقد كان يقول لهم : « سادفع عشرين سنتا في الساعة » . من الممكن ان نقول ان الفا قد توجهوا اليه . نصفهم لن يقبل القيام بمثل هذا الاجر . لكن الخمسمائة الآخرون في منتهى الجوع . وسيقومون بالعمل حتى مقابل البسكويت . وكلما جاءه مزيد من الرجال الجوعى . كلما قل ما يدفعه من أجر » .

تلفت الرجل ذو الثياب الرثة حوله . واستطرد قائلا : « أنا أقول لكم ما استغرق منى عاما حتى اكتشفته . ومات منى طفلان وزوجتى ؛ وأنا ألهث هنا وهناك ، لأحاول العثور على عمل ، ليس من أجل النقود ؛ لكن لمجرد قليل من الطعام ليبعد عنهم الموت جوعا » .

استدار الرجل ذو الملابس الرثة ومشى ببطء واختفى في الظلام .

لم يتفوه أحد من الرجال الآخرين وبدأوا يتفرقون بعيدا .

قال الأب : « ذلك الرجل يقول الحقيقة » .

قال كاسى : « كان يحكى ما حدث له » .

توجهوا الى الخيمة . خرجت الأم لملاقاتهم .

قالت : « الكل نائم ، حتى الجدة » .

ثم رأت توم فقالت له : « ألم تقابلك أي مشاكل ؟ » .

فقال توم : « لقد أصلحنا السيارة . ونحن على استعداد للرحيل في الصباح المبكر » .

قالت الأم : « شكرا لله على ذلك . فأنا أريد أن أصل الى هناك بسرعة . أريد أن أرى كل تلك الخضرة » .

تدخل الأب قائلا : « هناك رجل في المعسكر يقول . . » لكن توم جذبه من ذراعه لبوقفه . وقال : « سنذهب الآن ، لننام على جانب الطريق لفترة قصيرة تحت سماء ، يا أمي » .

أخذ صاحب المعسكر الجالس على كرسيه يراقب توم وآل وكاسي وهم يخرجون من المعسكر من خلال البوابة ، ويدلفون داخل السيارة . التقط توم قطعة من الطين وقذف بها . فأصابت البيت الخشبي ، فقفز المالك ، يحملق بغضب في الظلام .

الفصل الثامن

كاليفورنيا

تحرك ركب المغامرين ببطء تجاه الغرب عبر جبال نيو مكسيكو . وصعدوا منطقة اريزونا المرتفعة .

كانت المياه نادرة فى تلك المنطقة وتحتم عليهم شراؤها . كانت قمم جبال أريزونا فى مواجهتهم . ووصلوا الى منطقة الجبال ليلا ، وقادوا السيارتين طول الليل وعبروا القمة - واثناء هبوطهم ببطء كان النهار قد طلع ، فرأوا نهر كلورادو تحتهم . وتوقفوا فوق الجسر .

صاح الأب : « ها قد وصلنا .. نحن في كاليفونيا ! » .

قال توم : « مازالت الصحراء أمامنا . وسرعان ما سنصل الى الماء ، وتستريح » .

جلسوا فوق السيارتين ، واخذوا ينظرون الى مياه نهر كلورادو الصافية . كانت توجد احدى عشر خيمة بالقرب من الماء . فتوجهوا بسيارتهم الى مكان خال بالقرب من الخيام . ونزلوا من السيارتين ... وانطلق وينفيلد وروث ناحية الماء وسارا فيه ثم توقفا في هدوء .

قالت روث : « مازالت الصحراء امامنا » .

— « ماشكل الصحراء ؟ »

— « لا اعرف . سوف تعبرها بالليل . ولقد قال توم سوف تحترق لو عبرناها أثناء النهار » .

خلع الرجال ملابسهم بالقرب من الاشجار ، ونزلوا

الماء واستلقوا فيه وهم يشخصون بأبصارهم تجاه الصخور البيضاء لجبال اريزونا .

قال الأب في زهو : « لقد عبرنا تلك الجبال ! » .

قال توم : « لكن مازالت الصحراء امامنا . سنحاول عبورها الليلة » .

ـــ « على أي الأحوال ، انا أود عبورها . فلم يبق معنا سوى اربعين دولارا . كم أود الحصول على عمل بأسرع ما يمكن » .

كان هناك رجل وابنه يسيران في الماء ثم جلسا . فتوجه اليه الأب يسأله برقة : « هل أنت متوجه الى الغرب ؟ » .

ـــ « كلا . لقد جئنا من هناك . نحن عائدون الى بلدنا . في بلدنا يمكننا أن نعاني الجوع حتى الموت وسط اناس تعرفهم . نحن لا نريد أن نبقى في مكان أهله يكرهوننا » .

قال الأب : « أنت ثاني شخص اسمعه يتحدث على هذا النحو . اود أن اسمع المزيد عن ذلك » .

قال توم : « وانا كذلك . لماذا يكره اهل الغرب الوافدين ؟ »

نظر الرجل بحدة الى توم .

ـ « ألم تذهب ابدا الى كاليفورنيا ؟ » .

ـ « كلا ، على الاطلاق » .

ـ « اذن ، اذهب لترى بنفسك » .

قال توم : « سنذهب ولكننا نريد ان نعرف »

تكلم الرجل بعناية ودقة :

ـ « كاليفورنيا بلد جميل . اجمل بلد رأيته في حياتي . كلها بساتين واعناب ومجار مائية . انها بلد جميل لكنها ليست لكم . لو انكم زرعتم قليلا من القمح هناك ، فسوف تسجنون . والناس هناك يتطلعون اليك شذرا ويكرهونك ، لانهم يشعرون بالذعر ، خشية ان يستولى احد منكم على اراضيهم . لم يطلق عليك بعد اسم اوكيبي ! »

قال توم : « اوكيبى ! ماذا يعنى ذلك ؟ » .

ــ « اوكيبى ، تطلق على الناس الوافدين من اوكلاهوما . وتعنى انسان سيىء ، قذر ، هناك ثلاثمائة مواطن من بلدى ، يعيشون عيشة الكلاب » .

اطرق توم ببصره ناحية الماء .

وقال : « لكن ألا يستطيع اى شخص ان يمتلك قطعة ارض ، بعد ان يكون حصل على عمل وادخر بعض النقود ؟ » .

ضحك الرجل :

ــ « لن يكون بامكانك الحصول على عمل دائم ، سوف تناضل من اجل الحصول على عشــــائك كل يوم » .

ساله الاب بهدوء : « لكن اليس المكان هناك جميلا باى حال من الاحوال ؟ » .

ــ « بالتاكيد ، جميل ان تنظر اليه ، لكن لا يمكنك الحصول منه على شىء . تنهار البرتقال الصفراء تهلا

الأشجار – والحراس المسلحون يقفون بالمرصاد وعلى استعداد لاطلاق النار عليك اذا لمست برتقالة واحدة »

فقال الأب : « لكن اذا عمل الانســــان باقصى جهده .. » .

جلس الرجل في مواجهته . وقال له : « اسمع ياسيد ، انا لا احيط علما بكل شيء . فبامكانك الذهاب الى هناك ، وقد تحصل على وظيفة دائمة » .

تطلع توم الى والده .

وقال : « ما رايك يا ابي ؟ هل سنرحل الليلة ؟ »

– « يمكننا ان نرحل . وعندما نصل الى هناك نرى ماذا يمكننا ان نعمل . ساذهب لانام قليلا » .

نهض الرجل وتبعه الاخرون ناحية الشاطىء . ومن عند الشاطىء راى الرجل وابنه آل جوود وهم يتجهون ناحية الخيام .

قال الابن : « كم اود رؤيتهم بعد مرور ســــتة اشــــهر » .

* * *

كان الهواء ساخنا جدا فى الخيمة . والجدة مستلقية على الحشية . والام جالسة بجوارها ، تمروح الهواء بقطعة من الكارتون ، اما روزا شارون فقد كانت تجلس فى الجانب الآخر تراقب امها . ثم تطلعت الى المرأة العجوز وقالت : « انها مريضة جدا » .

قالت الام : « لقد حان موعدها . لكن لا تشغلي بالك بهذا الموضوع ياروزا شارون ، فأنت ستكون لديك طفل » .

تنهدت الجدة ، ثم بدأت تتنفس بعمق شديد .

قالت الأم : « انها نائمة الآن . تمددي الى جوارها واستريحي ياروزا شارون » .

قالت الابنة بنوع من الشكوي : « انا لا ادري أين كوني ، فانا لم اره منذ فترة طويلة » .

قالت الام : « شي .. شي .. استريحي الآن بعض الشيء » .

اغلقت روزا شارون عينيها . واسترخت الام

واصبح المعسكر ساكنا . بعد ذلك سمعت الام وهي نصف نائمة صوت وقع اقدام .

ـــ « من بالداخل هنا ؟ »

نهضت الام جالسة بسرعة . واطل عليها من باب الخيمة رجل ذو وجه بني ، يحمل مسدسا في وسطه وعلى صدره نجمة فضية كبيرة .

قالت الام : « ماذا تريد ياسيد ؟ »

ـــ « اين رجالكم ؟ من اين انتم ؟ »

ـــ « نحن من « تبرسالبسو » ، بولاية اوكلاهوما ، سوف نعبر الصحراء الليلة ، ياسيد » .

ـــ « حسنا ما تفعلون . نحن لا نريد احدا منكم هنا ، ايها الاوكيز » .

اربد وجه الام من الغضب والتفتت وعاء معدنيا .

وقالت في هدوء : « أوكيز ؟ اوكيز ؟ انك تحمل سلاحا ياسيد ، لكنني لا أخشاك » .

استدار الرجل وقال وهو يمضي بعيدا : « لو بقيتم هنا غدا فسوف آخذكم الى السجن » .

امسكت الام دموعها . واعادت الوعاء ثانية الى الصندوق .

* * *

غربت الشمس ، لكن الجو كان لايزال حارا . اشعلت الام نارا وبدات تسخن بعض الماء . تطلعت الى توم بينما هو عائد بعد ان نام نوما عميقا تحت الاشجار .

قالت : « لقد ارتعبت ياتوم . لقد حضر الى رجل بوليس وتحدث الي بطريقة سخيفة ، حتى كدت ان اضربه » .

قال توم وهو يبتسم : « يا إلهي يا امي . في المرة الاولى امسكت بيد رافعة السيارة ، والآن تحاولين ضرب رجل بوليس . ما الذي حدث لنا ؟ »

بدت الام في منتهى الجدية وقالت : « لا اعرف .

ان رجل البوليس هذا يا توم يطلق علينـــا اوكيز . ويقول انهم لا يرغبون فى بقاء أحد من الاوكيز هنا » .

وضعت الأم مزيدا من قطع الأخشاب فى النار ، وقالت : « لقد دعوت الله ان يحقق لنا الراحة ، وان نســتقر فى مكان طيب » .

طلب توم من روث ان تذهب الى منطقة الاشجار لتســتدعى الرجال ، حضـــر الرجال ومازال النوم فى عيونهم .

قال الأب : « ماذا حدث ؟ »

قال توم : « سنرحل ، قال رجل البوليس إنه ينبغى علينا أن نرحل ، امامنا ثلاثمائة ميل علينا أن نقطعها » .

اتجه ويلسون ناحية النار .

وقال : « لا يمكننا ان نرحل . فلابد لســارى أن تستريح . ولن يتسنى لها ان تعبر هذه الصحراء وتظل على قيد الحياة » .

قال توم : « رجل البوليس يقول انه سيقبض علينا لو بقينا هنا غدا » .

هز ويلسون رأسه وقال : « سارى لن تستطيع الرحيل . يقتضى علينا أن تستريح حتى تسترد قواها . اذا كان ولابد ان يقبضوا علينا ، فليقبضوا علينا » .

التفت الى كاسى وقال : « سارى تريد أن تراك » .

قال الواعظ : « أمتأكد انت ؟ » .

قام الرجال بتحميل السيارة ، ووضع كل شىء بعناية تامة . وملأت الجراكن بالماء .

قال توم : « ان السيارة ستكون بحاجة الى مزيد من الماء ، مع هذه الحمولة » .

قامت الام بتفريق البطاطس المسلوقة فأكلها الجميع وتوقف .

بعد ذلك اتجهت الام الى خيمة ويلسون وبقيت هناك لمدة عشر دقائق . ثم عادت تكسوها مسحة من الهدوء .

وقالت : « لقد حان وقت الرحيل » .

كانت الجدة ماتزال نائمة . فرفعوها بمرتبتهــا ووضعوها برقة فوق السيارة ..

اخرج الأب نقودا من جيبه واشار الي البطاطس واللحم . وقال لويلسون : « نريدك ان تاخذ الطعام وهذه النقود » .

فقال ويلسون : « كلا ، لن افعل ذلك » .

أخذت الام النقود من الاب ووضعت اناء اللحم فوقها » .

وقالت : « هاهو مكانها . ان لم تأخذها فسوف ياخذها شخص آخر » .

قال توم : « يجب ان نرحل الآن . فالساعة قاربت على الرابعة » .

صعد افراد العائلة الى صندوق العربة . وجلست الام على قمة الحمولة بجوار الجدة . وجلس توم وآل والاب في المقدمة ، اما الباقي ففي صندوق العربة .

قال الأب بصوت عال : « وداعا ياسيد وياسيدة ويلسون » .

لم يتلق ردا من الخيمة . ادار توم محرك السيارة . وبينما كانت العربة تسير ببطء على طريق وعر يؤدي الى الطريق السريع ، تطلعت الأم الى الخلف ، رات ويلسون يقف أمام خيمته في تلك اللحظة ويتطلع اليهم . لوحت الأم بذراعها ، لكنه لم يلوح لها بدوره .

* * *

في آخر محطة لخدمة السيارات قبل الوصول الى الصحراء ، قام توم بشراء زيت ووقود للسيارة ، ونفخ على اطارات السيارة ، وملأ مبرد المحرك بالماء .

كان هناك رجلان يعملان في محطة البنزين اخذا يتطلعان الى العربة وهي تغادر المكان . قال احدهما :

ــ « كم اكره أن اعبر الصحراء بسيارة متعبة مثل هذه » .

قال الثانى : « لانهم اوكيز ، اغبياء . ليســــــوا بشرا . فالبشر لا يمكن ان يقبلوا العيش فى مثل هذه القذارة والبؤس » .

قال الأول : « نعم ، هم أغبياء . لأنهم لا يدركون خطورة عبور الصحراء على هذا النحو . لكن ما الداعى للأسف ؟ فهم ليسوا أناسا مثلنا بأى حال من الأحوال .

الفصل التاسع

عبور الصحراء

قطعت السيارة الطريق الصاعد الى أعلى التل ، فوصلت الى قمته بينما كانت الشمس تسطع بأعلى السماء ، وانعكست أشعتها الصفراء على الصحراء الممتدة . وهكذا كانت تواجههم الجبال السوداء وضوء الشمس المبهر .

اوقف توم محرك السيارة عندما وصلوا الى بداية الصحراء الممتدة أمامهم ، وانتظروا حتى برد المحرك .

غربت الشمس ، وسادت الظلمة خاصة تحت مظلة صندوق السيارة ، وشرع كل من كانوا فى الصندوق

يتحدثون همسا لفترة . واخيرا نام الجميع فيما عدا الام ، التي كانت ترقد بجوار الجدة وتستشعر دقات قلب المرأة العجوز .

قالت الام اكثر من مرة : « انها ستكون على مايرام ، فلابد أن تعبر العائلة هذه الصحراء ، وانتم تعرفون ذلك » .

بعد مرور فترة من الوقت ؛ كانت الجدة لاتزال ساكنة والام ترقد بجوارها .

مرت ساعات الليل ، احيانا كانت تمر بهم بعض السيارات المتجهة نحو الغرب ، وفي احيان اخرى بعض سيارات النقل الضخمة المتجهة الى الشرق بهديرها المزعج . انتصف الليل تقريبا عندما وصلوا الى مدينة « داجات » حيث توجد نقطة التفتيش ، باضوائها البراقة ولافتة كتب عليها : « الزم اليمين وتوقف » .

خرج ضابط من نقطة التفتيش ، فسأله توم :

ــ « لماذا التفتيش ؟ » .

— « انه تفتيش زراعي ، لابد أن تفتش امتعتكم — لنرى اذا كان معكم اى خضروات او حبوب . لابد من انزال الحمولة » .

نزلت الام من فوق صندوق السيارة وعيناها في منتهى القوة والصلابة وقالت وهى تغالب دموعها : « سيدي ، معنا سيدة عجوز مريضـــــة ، ولابد من عرضها على طبيب فى اقرب فرصة ، وانت لن ترضى أن تعطلنا . اقسم لك ، ليس معنا اى شيء من ذلك ، والجدة فى حالة سيئة جدا » .

وصعدت مرة اخرى الى صندوق السيارة .

وقالت له : « انظر » .

وجه الضابط ضوء كشافه الى وجه المرأة العجوز وقال : « انها مريضة فعلا ، مع السلامة بمكنكم العثور على طبيب في المدينة التالية » .

استأنف توم القيادة ، ثم توقف فى المدينة التالية واتجه الى صندوق السيارة ، فقالت الام : « انها على مايرام ، واصل القيادة لابد ان نعبر هذه الصحراء » .

هز توم رأسه وعاد ثانية .

قال لأخيه آل : « لا أعرف ماذا حدث لأمي . تارة تقول ان الجدة في حالة سيئة جدا ، وتارة أخرى تقول انها على ما يرام . انا لا افهمها » .

قال الأب : « أمك هكذا منذ ان كانت فتاة صغيرة فتاة برية ، لا تخشى اي شيء » .

* * *

تولى آل قيادة السيارة بسرعة منتظمة عبر تلك الظلمة الساخنة ، الى ان كشفت اضواء الفجر عن جبال الغرب العالية . قاموا بتزويد السيارة بالوقود والمياه في مدينة « موجاف » ثم واصلوا السير عبر الجبال .

قال توم : « يا للمسيح ، لقد عبرنا الصحراء . عبرنا الصحراء » .

قال آل : « كنت في منتهى التعب ، حتى أنني لم الحظ ذلك » .

سطعت الشمس من خلفهم ، وفجأة رأوا واديا عظيما تحتهم . ضغط آل على الفرامل وأوقف السيارة على الطريق .

قال : « انظروا ! » .

كانت مزارع الكروم والخوخ تمتد على طول الوادي الفسيح ، بلونها الأخضر الجميل . كذلك كانت توجد بيوت المزارعين وصفوف من الأشجار .

تنهد الأب وقال : « لم أر في حياتي شيئا مثل ذلك من قبل » ونادى على الأم قائلا : « تعالي وانظري ، لقد وصلنا ! » .

نزلت روث وويتفيلد من فوق السيارة بصعوبة .

همست روث قائلة : « إنها كاليفورنيا ! » .

هبط الآخرون ووقفوا خلفهم .

قال توم : « أين أمي ؟ أريدها أن ترى ذلك المنظر . تعالي يا أمي ، انظري ! » .

هبطت الام من فوق صندوق السيارة ببطء . كانت راسها متصلبة ، وعيناها حمراوتين مجهدتين .

قالت الام : « تقول اننا عبرنا الصحراء » .

اشار توم الى الوادي العظيم .

ادارت الام راسها وقالت : « شكرا لله ، ان وصلت العائلة الى هنا » .

وفجاة انثنت ركبتاها وجلست على الارض .

— « أنت متعبة يا أمي ، الم تنامي جيدا ؟ » .

— « كلا » .

— « هل حالة الجدة سيئة ؟ » .

— رفعت الام عينيها وتطلعت عبر الوادي .

— « لقد ماتت الجدة ! » .

تطلع الجميع اليها ، وسالها الاب : « متى ؟ » .

— « قبل ان يوقفونا ليلة امس » .

قال توم : « كان ذلك اذن السبب في عدم رغبتك في تفتيشنا » .

قالت الام : « كنت اخشى الا نستطيع عبور الصحراء . قلت للجدة انه ليس في استطاعتنا فعل شيء لمساعدتها . ولا يمكن أن نتوقف في الصحراء . ينبغي علينا ان نفكر في الصغار ، وطفل روزا شارون المرتقب ! » .

امسكت الام راسها بيديها وغطت وجهها لحظة ثم قالت : « لقد اتيحت لها الفرصة لكي تدفن في مكان اخضر جميل » .

تطلع الجميع الى الام ، وهم مندهشون من قوتها وصلابتها .

قال توم : « يا للمسيح ، اذن فقد كنت ترقدين الى جوارها طوال ليلة امس » .

ثم اتجه ناحيتها ليضع يده على كتفها .

قالت الام : « لا تلمسني . هل بامكاني ان اجلس في المقدمة »

لا أريد أن أركب في مؤخرة السـيارة بعد ذلك ، انا متعبة بشكل بشع » .

صعد الآخرون الى صندوق السيارة ، وجلسوا على مبعدة من الجسد المتخشب المغطى .

همست روث : « هذه هي الجدة ، ولا حياة فيها . ميتة ! » .

ركب توم والاب والام في المقدمة . وبدات السيارة تهدر بحمولتها الثقيلة تجاه الوادي الذهبي الأخضر .

قالت الأم : « انه رائع ، كنت اتمنى أن يروه » .

تتبعت السيارة الطريق الملتوي الهابط من الجبال .

قال توم : « اعتقد انه ينبغي علينا أن نتوجه الى مكتب الصحة أينما وجد . لابد ان ندفنها بشكل قانوني سليم . كم بقي معك من نقود يا ابي ؟

قال : « حوالي ، اربعين دولارا » .

ضحك توم : « نحن بالتاكيد لم نحضـــــر معنا شيئا » .

استمر في الضحك لبرهة ، ثم اصبح وجهه جادا وجذب قبعته فوق عينيه .

واخذت السيارة تهبط على الطـريق الجبلي في اتجاه الوادى الأخضر .

الفصل العاشر

رد فعل كاليفورنيـــا

كانت كاليفورنيا منذ زمن بعيد ملكا للمكسيكيين ، ثم جاء الامريكيون وكلهم نهم لامتلاك الارض . واستولى الامريكيون على الارض بالقوة ، وقاموا بحراســـتها بالسلاح . ولم يكن المكسيكيون بالقوة التي يستطيعون بها استرداد اراضيهم . وهكذا عاش الامريكيون على هذه الارض واستقروا فيها وانجبوا اولادهم ، واصبحوا ملاك الاراضي .

بعد فترة من الزمن نســـوا نهمهم الأول لامتلاك الاراضي ، ولم يعد حب امتلاك الارض يستحوز عليهم

وحل محله حب المال ، فتحول المزارعون الى اصحاب محــــلات تجارية ثم الى رجال اعمال . وتملك رجـــال الاعمال هذه الاراضـي ، لكنهم لم يكونوا يعرفون شـيئا عنها ، لدرجة ان الكثير منهم لم ير الارض التى كان يملكها ، ولا المحاصيل وهي تنمو .

وعندما فقـد المزارعون الصـــغار من كنســـاس وتكســاس واوكلاهوما اراضـيهم نزحوا الى الغرب . وعبر الجبال اكثر من مائتى الف مشـرد وجائع ، تزايد عددهم فيما بعد .

كانوا جوعى شرسـين ، ويأملون فى العثور على مأوى ، لكنهم لم يلقوا سوى الكراهية . واطلق عليهم الأوكيبى ، نظرا لكراهية اصحاب الاراضـي لهم . كان الملاك مرفهين والاوكيبى خشـنين ، كان الملاك يتغذون جيدا ، فى حين يتضـور الآخرون جوعا .

كان اصـــحاب المحلات التجارية يكرهون الاوكيبى ايضـا ، لعدم وجود نقود معهم يصرفونها . كان كل

ما يفكر فيه الاوكيبى امرين فقط ، الارض والغذاء ، لذا فقد كرههم اهل كاليفورنيا لهذا السبب .

كان الرجال الجوعى يقودون سيارتهم خلال مزارع البرتقال ، ولايستطيع احد منهم أو اطفالهم ان ياكل برتقالة بسبب الرجال المحجبين بالسلاح الذين يحرسون المزارع . لم يكن معهم نقود ، ولا يستطيعون الحصول على عمل ، فاين يمكن أن ينام كل هؤلاء ليلا ؟

وعلى ذلك تم اجبار الاوكيبى للعيش فى الخيام خارج اطار المدن وبالقرب من مجارى الماء ، واحيانا كانوا يقيمون عششا من الكارتون . واثناء النهار يبحثون عن عمل ، ويجلسون اثناء الليل يتحدثون . لم يكن هؤلاء الناس مسلحين ، لكنهم كانوا خطرين ، فقد عرفوا ما كانوا يريدونه . وبالتالى كان اهل كاليفورنيا يخشونهم .

وهكذا احرق اهل كاليفورنيا معسكرات الاوكيبى .

قال اهل كاليفورنيا : « ان معسكراتكم هذه خطرة •

تنتشر منها الأمراض ، ولدينا اوامر بطردكم من هنا . بعد نصف ساعة سوف نضرم النار في المعسكر » .

خلال نصف ساعة ، كان الأوكيين يسيرون على الطرق مرة ثانية ، بحثا عن معسكرات اخرى . ورغم ذلك ظلت الجرارات في اوكلاهوما وكانساس وتكساس تحمل الناس خارجها . كان هناك ثلاثمائة الف مهاجر في كاليفورنيا والمزيد آت على الطريق .

كان اهل كاليفورنيا يخشون امكانية بزوغ قائد او زعيم لهؤلاء الثلاثمائة الف . فاستخدموا كل السبل الممكنة لتحطيم وتفرقة المهاجرين لانهم كانوا على يقين تام بانه سيأتي يوم يتوقف فيه المهاجرون عن الكلام ومن التوسل الى الله لاطعام اطفالهم . ويشرعون في القتال . وستكون تلك هي النهاية .

الفصـــل الحادي عشر

البحـــث عن عمـــل

فى المدينة التالية ــ بيكرز فيلد ــ توجه الأب والأم الى مكتب الصحة . بعد ذلك حملوا جسدها الملفوف الى الداخل . وظل باقى افراد العائلة بالســـيارة فى الحر .

خرج الأب والأم بسرعة جدا .

قالت الأم : « لقد بذلنا غاية ما فى جهدنا من اجل الجدة ، لكى تدفن بشكل مناسب . والآن يتبغى علينا ان نواصل سيرنا ، ونبحث عن مكان نبقى فيه ، حتى نحصل على عمل ونستقر » .

سأل توم : « الى اين سنذهب ؟ »

قال الاب : « الى المعسكر . قد السيارة تجاه الريف » .

بجوار جسر خارج المدينة وجدوا المعسكر — وهو مجموعة من الخيام ، عددها اربعون ، وكذلك بعض عشش الكارتون . وبجوار كل خيمة او عشة يوجد جرار او سيارة قديمة .

اوقف توم السيارة ونظر الى والده .

وقال : « ليس على ما يرام . اتود ان نذهب الى مكان آخر ؟ » .

قال الاب : « لا نستطيع ان نذهب الى اى مكان آخر الآن . ينبغي علينا ان نحصل على عمل اولا » .

قالت الام : « هيا ننصب الخيمة . انا منهكة تماما . وحتى نستريح جميعا » .

ساعد توم والاب بقيتهم فى رفع غطاء السيارة

الى منطقة الخيام تحلقت حولهم دائرة من الأطفال يرقبون استقرار عائلة جديدة .

اتجه توم ناحية شاب يقوم باصلاح سيارة . ورأى الخيام القذرة ، واوانى الطبخ السوداء والسيارات المتعبة .

سأله توم : « الا يوجد عمل ؟ »

ـ « لا توجد محاصيل فى الوقت الحالى . لم يحن موعد قطف العنب ، وبعده يحن موعد جمع القطن .

قال توم : « عندما كنا فى بلدنا ، اعطانا بعض الزملاء اعلانات جاء فيها ، انهم فى حاجة الى اناس كثيرين لجمع المحاصيل » .

ضحك الشاب .

ـ « يقولون ، انه يوجد هنا ثلاثمائة الف ، بناء على هذه الاعلانات » .

قال توم : « لكن لماذا يوزعون مثل هذه الاعلانات ، طالما هم ليسوا فى حاجة الى أياد عاملة ؟ » .

قال الشاب : « اسمع ، لو انك صاحب عمـــل ، وتقدم اليك شخص واحد ، فلابد ان تدفع له ما يطلبه . لكن اذا كان هناك مائة رجل ، وكل منهم لديه اطفال ، فسوف ، فسوف يتقاتلون كلهم للحصـــول على تلك العمل . آخر عمل قمت به كانوا يدفعون لي خمســـة عشر سنتا في الساعة ، وحتى تصل الى هناك يجب ان تستعمل سيارتك وتستهلك وقودا . هذا هو ما عليه الحال » .

قال توم : « لكنني رايت بعض المحاصيل النامية ، وحان موعد قطافها » .

قال الشاب : « هذا صحيح . محصول الخوخ مثلا . هم في حاجة الى ثلاثمائة الف رجل لمدة اسبوعين عندما ينضج المحصول . وبعد الانتهاء من جمع المحصول لن يكونوا في حاجة اليك ، وبالتالي يطـــردونك ، ويبعدونك عن المنطقة . هذا هو ، ما عليه الحال » .

قال توم بغضب : « لكن اذا اضرب العمال عن

جمع الخوخ وتركوه حتى يفسد ، اعتقد انهم في هذه الحالة سوف يدفعون الأجر المناسب » .

ابتسم الشاب وقال : « لقد فكروا في ذلك . لكن المشكلة انه ينقصهم قائد أو زعيم لتنفيذ هذا الكلام . وعندما حدث ونفخ شخص فيه لأول مرة بمثل هذا الكلام قبضوا عليه ووضعوه في السجن » .

خلع توم قبعته وبرمها بين يديه . وقال : « لذا فاننا نقبل ما يتوفر لنا من عمل ، والا متنا جوعا ، واذا شكونا من ذلك نموت جوعا أيضا » .

اجاب الشاب : « نعم ، والامر لا يتوقف عند ذلك الحد بل ان البوليس عندما يمر بالمنطقة يتعامل معنا بقسوة . تذكر دائما اننا اغبياء .. لاننا من الأوكيين » .

* * *

داخل الخيمة استلقت روزا شارون على المرتبة وجلس الى جوارها زوجها كوني ، وعيناه غاضبتان معتمتان .

قال : « لو كنت أدرك أن الأمور ستصبح على هذا النحو ، ما كنت جئت الى هنا ، وواصلت دراستي في ميكانيكا الجرارات ، ولكنت حصلت على ثلاثة دولارات نظير قيادة جرار .

بدت روزا شارون في منتهى الحزن والأسف .

قالت : « بل سوف تدرس ما يختص بالراديو . لابد ان تفعل ذلك ! لابد ان يكون لنا بيت قبل ان يأتي الطفل . لن يولد هذا الطفل ونحن لانزال في تلك الخيمة ! » .

قال : « بالتأكيد ، سوف أدرس . لكن ربما كان من الافضل لو بقينا في بلدنا ودرست ميكانيكا الجرارات .

خرج من الخيمة ، واستدارت روزا شارون لتستلقي على ظهرها وشرعت في البكاء في صمت .

حول النار التي اوقدتها الام ، التف الاطفال واستطاعوا ان يشموا رائحة الطعام المسلوق .

قالت احدى البنات بادب : « أستطيع تكسير بعض الاخشاب لك » .

رفعت الام بصرها عن الوعاء .

قالت : « اتودين ان ندعوك الى الطعام ؟ »

قالت البنت الصغيرة : « نعم ، نعم ! » .

تطلعت الام الى البنت الصغيرة فى أسى وسألتها :

« منذ متى أنت واهلك فى كاليفورنيا ؟ » .

ـ « منذ حوالي ستة اشهر . عشنا فى معسكر الحكومة لفترة ، ثم ذهبنا شمالا ، وعندما عدنا كان المعسكر ممتلئا . والحقيقة ، هو مكان متميز جدا ياسيدتى .

سألتها الام : « اين يوجد ؟ » .

ـ « بالقرب من ويدباتشى » . به دورات مياه وحمامات نظيفة . يمكنك غسيل الملابس بواسطة صنابير للمياه . الموسيقى تعزف مساء كل يوم سبت ،

وتنفس الناس في الرقص ، اتمنى لو استطعنا العيش هناك ثانية » .

قالت الأم : « لابد انه يكلف كثيرا » .

ــ « اجل ، يكلف ، لكن اذا لم يكن معك نقود ، فلابد ان تعملي » .

قالت الأم : « بالتـــأكيد . اتمنى أن تذهب الي هناك » .

توجه آل الي الرجل الذي كان يصلح السيارة .

قال له الرجل : « لقد تحدثت الى زميل منذ برهة مضت ، هل هو معك ؟ » .

ــ « اجل ، انه اخى توم . من الأفضل أن تعامله بلطف ، فقد قتل شخصا ذات مرة » .

ــ « لكنه لا يبدو كقاتل » .

ــ « فعلا ، فتوم هادىء ، لكنه لا يسمح لأحد أن يتطاول عليه » .

اطل آل داخــل الموتور القـــديم ، وقال : « اتود منى ان اسـاعدك ، فانا لا استطيع ان امنع يدى عن محرك سـيارة » .

قال الرجل : « شكرا ، كم اود ذلك ، اسمــــــى « فلويد نولز » .

— « وانا آل جوود » .

قال فلويد : « مضى على هنا ستة اشهر ، بحثت خلالها عن كل انواع العمل . عندما ننتهى من اصـلاح هذه السـيارة ، سـوف تغادر هذا المكان ، فهناك عمل فى الشـمال » .

— « آل : » .

تطلع آل الى وينفيلد الذى كان يقف الى جواره بنوع من الفخر .

— « آل ، امى تضع الطعام فى الاطباق ، وتقول لك تعال لتاكل » .

قال آل : « ساحضر حالا » . ثم قال لفلويد : « نحن لم ناكل اليوم . ساساعدك فيما بعد » .

تطلعت الام بياس الى آل وهو قادم . وكان هناك مجموعة من الاطفال تتحلق حول النار ووعاء الطعام .

قالت الام : « لا ادرى كيف اتصرف — يجب على ان اطعم افراد العائلة . لكن لا اعرف كيف اتصرف مع كل هؤلاء الاطفال ؟ »

تحدث توم مع الاطفال . قال لهم : « هيا انصرفوا الآن . فليس هناك من الطعام ما يكفى لكم » .

وضعت الام الطعام فى اطباق من المعدن لافراد الاسرة .

ثم قالت : « ليس هناك الكثير . خذوا اطباقكم وادخلوا الخيمة . سأترك هؤلاء الاطفال يلعقون وعاء الطهى » .

اندفع الاطفال لاحضار قطع من الخشب العريض او الملاعق . وذهبت الام الى الخيمة ، ومن داخلها

استطاع افراد الاسرة سماع الأطفال وهم ياكلون ما تبقى في وعاء الطهي . وتركوا الوعاء فارغا على الارض .

قالت الأم : « لن اعود لعمل ذلك مرة اخرى . ينبغي ان ناكل بمعزل عنهم » .

نهض آل واقفا وقال : « يجب أن اذهب لمساعدة ذلك الشاب في اصلاح سيارته » . ذهب وعاد بعد عدة دقائق .

نادى آل على توم قائلا : « تعال معي » . واخذ توم معه حيث السيارة القديمة .

وقال : « هذا الرجل اسمه « فلويد نولز » . ننادبه فلويد » .

قال فلويد : « سيكون هناك عمل في الشمال » .

ساله توم : « اي نوع من العمل ؟ وكم يبعد عن هنا ؟

— « جمع ثمار الكمثرى » على بعد مائتى ميل » .

قال توم باسى : « كنت أتمنى أن تتاح لنا فرصة العمل هنا ، ونستأجر بيتا نعيش فيه » .

قال فلويد باهتمام : « هناك أشـــــياء ينبغى أن تعرفها . لن تتاح لك الفرصة للاستقرار فى مكان ما ، لأنه لا يوجد لك عمل » .

قال آل : « من الأفضل ان نذهب ونرى يا توم . وبالنسبة لى أنا ، فسأذهب بغض النظر عن ذهاب العائلة أم لا » .

قال توم : « لن ترحب أمى بذلك » .

انحنى الرجال الثلاثة فوق المحرك وشرعوا يعملون فى صمت انحرفت سيارة جديدة كبيرة من على الطريق السريع ودخلت المعسكر وتوقفت فى وسطه .

قال توم : « من هذا ؟ » .

قال فلويد : « ربما يكون البوليس » .

ترك الرجال الثلاثة الأدوات التى كانت فى أيديهم واتجهوا ناحية السيارة التى نزل منها رجل .

قال : « اترغبون فى عمل يا رجال ؟ » .

توافد عدد كبير من رجال المعسكر .

ــ « بالتاكيد نريد ان نعمل . لكن اين ؟ » .

ــ « بمنطقة تولير ، نحن بحاجة لعدد كبير لجمع الفاكهة » .

سال فلويد : « كم تدفعون ؟ »

ــ « تقريبا ، ثلاثين سنتا في الساعة » .

ــ « لكن لماذا لا تحدد الاجر بالضبط ؟ الست موكلا من صاحب الارض ؟ » .

ــ « ربما يزيد الاجر قليلا ، وربما ينقص قليلا » .

تقدم فلويد خطوتين الى الامام وقال في هدوء :

« ساذهب ياسيد . أرجو ان تريني ترخيصك . وقل لنا من اجرنا ، وكم من الرجال تريد ، وسنذهب » .

قال الرجل : « هل تعلمني كيف اقوم بعملي ؟ انا

لا اعرف هذه الأمور كل ما اعرفه اننى فى حاجة الى رجال ، الى عدد كبير من الرجال » .

التفت نلويد الى الرجال حوله .

قال : « لقد صدقت هذا الكلام مرتين قبل ذلك . فلقد يكون الواحد منهم فى حاجة الى الف رجل ، ثم يجد أمامه خمسة آلاف ، وازاء ذلك يخفض الاجر الى خمسة عشر سنتا فى الســـــاعة . ونقبل نحن لاننا جوعى . ونطلب رؤية الترخيص » .

التفت الوكيل ونادى بصوت عال : « جو ! » .

هبط من السيارة رجل متين البنيان يضع على صدره نجمة مامور البوليس ، ويمنطق بمسدس .

اشار الوكيل الى نلويد .

— « هل رايت هذا الشخص من قبل ؟ انه يتكلم مثل الشيوعيين الحمر ويثير القلاقل » .

تطلع الرجل المتين البنيان الى نلويد بقسوة .

ـــ « اجل ، رايته من قبل فى المنطقة بالقرب من تلك السيارة المسروقة . انا متأكد انه نفس الشخص ، انت اصعد الى السيارة ! » .

قال توم : « ما الخطأ الذى ارتكبه ؟ » ،

قال الرجل : « لو تكلمت اكثر من ذلك ، فسوف تصعد الى العربة انت الآخر » . ثم تطلع الى جمع الرجال المحيطين .

وقال : « ان هذا الوكيل يمكنه ان يستخدمكم كلكم بمنطقة توليير . وربما تكون فكرة صائبة أن تذهبوا الى هناك ، لأن هذا المعسكر قذر ، ولابد ان نزيله تماما ، ومن المحتمل ان تشتعل فيه النيران ، واعتقد أنه من الافضل الا تتواجدوا هنا عندما تفعل ذلك . هنـــاك الكثير من العمـــــل فى توليير ، انا لا اريد أن يتواجد احد هنا غدا صباحا » ، ثم توجه بالحديث الى فلويد : « اما انت ، فلتصعد الى العربة ! » .

وعندما امسك بذراع فلويد الايسر ، كانت قبضة فلويد اليمنى تضرب وجه الرجل الضخم . واستدار فلويد ليجرى ، وبينما كان المامور يشرع في الجرى اللحاق به ، وضع توم قدمه في طريقه ، فسقط على الارض ، واخذ يطلق النار .

صرخت امرأة . وتدفقت الدماء من اصابعها . رفع المامور مسدسه ثانية . فتقدم كاسي من بين الحشد وركله في رقبته . فسقط على الارض مغشيا عليه .

زمجرت العربة على الطريق والوكيل بداخلها ، وبدات النسوة في الصراخ باصوات عالية جدا . التقط توم مسدس المامور ، وافرغه من الرصاص ثم رماه بين الشجيرات .

اقترب كاسي من توم وقال له : « يجب عليك ان تهرب ، فقد رآك المامور وانت تمد قدمك في طريقه . ولا تنس انك مازلت تحت المراقبة ، ولسوف يرسلونك الى السجن .

سحب فوما نتصا حادا حجيقا وقال : « يا الهي ، لقد نسيت » . وسار مسرعا تجاه الأشجار .

من على بعد سمع صوت سارينة سيارة البوليس وعلى الفور أصاب الرجال نوع من التوتر وتوجهوا نحو خيامهم ، فيما عدا آل وكاسي . التفت كاسي الى آل وقال له : « هيا ، ادخل الخيمة ، ولا شأن لك بأى شيء » .

— « لكن ، وماذا عنك انت ؟

ابتسم كاسي وقال : « لابد ان يقع العقاب على شخص ما . وانا ليس لدى أطفال . ولو انك دخلت في مشاكل فسوف يكون من السهل العثور على توم ويبعثون به الى السجن » .

فكر آل للحظة .

وقال : « لابأس ، يالك من احمق ، ياكاسي » .

دوت سارينة سيارة البوليس ثانية ، واقتربت اكثر

وكان جميع الرجال داخل خيامهم فى تلك اللحظة .
ركع كاسى بجوار جسد المأمور وقلبه على ظهره .

نزل اربعة رجال باسلحتهم من سيارة البوليس .

— « ما الذى يحدث هنا ، بحق الجحيم ؟ »

قال كاسى : « لقد طرحت رجلكم هذا ارضا ، فقد كان يصرخ ميتا واصاب امرأة ، لذا ضربته » .

— « اصعد الى السيارة ! » .

قال كاسى : « ساصعد بالتأكيد » .

جلس المأمور واخذ يحملق فى كاسى وقال : « انه لا يشبه ذلك الشخص الذى ضربنى » .

قال كاسى : « انه انا . ساذهب معكم دون مشاكل . من الافضل ان تساعدوا تلك المرأة .

صعد كاسى الى الصندوق الخلفى لسيارة البوليس .

بعد فترة سمع أهل المعسكر السيارة تبدأ فى السير ، فخرجوا من خيامهم واتجهوا ناحية خيمة آل جورد وذهبوا للبحث عن توم .

يتساءل الأب : « ما الذى جعل الواعظ يفعل ذلك بحق الجحيم » .

الفصل الثاني عشر

المهـــاجرون

كانت الشمس قد غربت في تلك اللحظة ، لكن واجهة الجبال الشرقية كانت لاتزال صـــــفراء بفعل أشعة الشمس .

راقب الأب الام وهي تشعل نارا صغيرة . فشرت البطاطس وقطعتها شرائح في الوعاء . خلفهما كانت روزا شارون تتحرك ببطء خارجة من الخيمة .

قالت : « اين كوني ؟ انا لا اشعر انني على مايرام لا يجب ان يتركني كوني وحدي » .

تطلعت الام الى وجه ابنتها الحزين .

قالت : « لقد كنت تبكين ، لعلى بجوارى وتشعرى البطابطس ، يجب ان تكفى عن الاحساس بالحزن والاسى » .

اقتربت روزا شارون من النار ببطء .

واخذت تردد : « ما كان ينبغى ان يتركنى وحدى » ثم تناولت سكينا وقالت بقوة : « فلينتظر ما سيحدث له عندما اراه » .

ابتسمت الام ببطء : « من المحتمل ان يضربك ، لو انه ثبط احاسيسك ومشاعرك ، فسوف اشكره ، والآن كفى حزنا » .

كانت عينا روزا شارون تفيضان غضبا ، لكنها لم تقل شيئا . ووصل آل ونوم وهما يتحدثان بهدوء . قال توم : « ما كان ينبغى على كاسى ان يفعل ذلك ، لكنه كان يتحدث طوال الوقت عن رغبته فى فعل شىء من اجلنا » .

قال آل متسائلا : « الى اين تظن ان كونى سيذهب عندما رايناه هناك منذ قليل ؟ »

ـ « لا اعرف . لكنه كان يبتعد عن المعســـــكر بسرعة » .

نادى غلويد على آل وتوم بصوت خفيض من خيمته وسألهم : « هل ستتركان المكان ؟ » .

قال توم : « لا اعرف . اتظن انه من الافضل ان ننتقل ؟ »

ضحك غلويد وقال : « لقد سمعتما ما قاله رجل البوليس . سوف يعودون ليحرقوا المعســـكر الليلة بالتأكيد » .

قال آل : « اين ذلك المعسكر الحكومي الذى تكلم عنه ذلك الشخص ؟ » .

ـ « اتجه جنوبا على الطريق السريع رقم ٩٩ لمسافة اثنى عشر او اربعة عشـــر ميلا ، ثم انحرف شرقا الى « ويد باتش » . لكنني اعتقد ان المعسكر مكتظ عن آخره » .

قال توم : « لكننا سنحاول . الى اللقاء ياغلويد » .

قال آل : « الى اللقاء » وسارا فى الظلام حتى وصلا الى خيمتهم .

صاحت الام : « انه توم . حمدا لله ! » .

قال توم : « لابد أن نرحل من هنا . سوف يحرقون المعسكر الليلة . رجال البوليس يريدون طردنا من هنا » .

قالت روزا شارون : « هل رأيتما كونى ؟ »

قال آل : « نعم . غادر المنطقة منذ فترة طويلة . اتجه الى الجنوب » .

تطلعت الأم الى ابنها بجمود .

سألته : « ماذا قال لكما ؟ » .

— « قال : انه كان من الأفضل له لو بقى فى بلده وتعلم قيادة الجرارات » .

ساد الجميع الصمت . فيما عدا صوت قلى البطاطس على النار .

قال الأب : « كوني ؛ لم يكن ذا نفع . وقد عرفت ذلك منذ فترة طويلة » .

نهضت روزا شارون واتجهت الى الخيمة ورقدت وهي تغطي وجهها بيديها » .

قال آل : « اعتقد أنه لم يكن من المفيد ان تعيد كوني » .

قال الأب : « بالتأكيد ، فلا فائدة ترجى منه ، لقد هرب ونحن لا نريده » .

قالت الأم : « لا تقل ذلك . فروزا شارون ستلد طفلا ، وذلك الطفل نصف كوني ، قل انه مات ولا تقل عنه مثل هذه الأشياء السيئة » .

قال توم : « نحن لسنا على يقين من ان كوني تركنا . والآن ليس لدينا وقت للكلام . لابد أن نأكل ثم نمضي لحال سبيلنا » .

قالت الأم : « نمضي لحال سبيلنا . لقد وصلنا توا الى هنا » .

لشرح لها توم الموقف .

فقالت الام بفرح : « اذن هيا نأكل ثم نمضي » .

اكلوا البطاطس الساخنة ، ثم بداوا تحميل السيارة في صمت .

جلست روزا شارون بعيدا تراقب ما يجري ثم قالت :

— « انا اريد « كوني » . لن ارحل الا اذا عاد » .

كانت السيارات الاخرى قد بدأت في الرحيل بالمشلات الاخرى ، بعيدا من المعسكر . جاءت الام وجلست بالقرب من ابنتها .

وقالت : هيا يا روزا شارون هيا يا عزيزتي » .

— « سانتظر » .

— « لا يمكننا الانتظار » .

مالت الام وساعدت ابنتها على النهوض . وقالت : « سوف يعثر علينا ، لا تقلقي ، سوف يعثر علينا » .

قالت روزا شارون : « من المحتمل أنه عاد لاحضار بعض الكتب للدراسة ، وقد يفاجئنا بعودته » .

قالت الأم : « من المؤكد ان هذا ما فعله » .

ساعدوا الابنة في الوصول الى السيارة وكذلك في الصعود الى أعلى الحمولة » .

قال توم : « هيا ياابي ، وانت يا آل ، اركب في الخلف . خذ تلك القضيب . لو حاول احد الركوب اضربه » .

وضع توم يد الرافعة الى جواره بأرضية السيارة وادار المحرك واتجه صاعدا نحو الطريق السريع متجها الى الجنوب » .

قالت الأم : « كن حريصا . فنحن نهتز . كن حريصا في قيادتك » .

سارت السيارة على الطريق . وظهر صف من الاضواء الحمراء على الطريق ابطأ توم سرعة السيارة ثم توقف . واحيطت السيارة على الفور بمجموعة من

الرجال المسلحين بالعصي والبنادق . اطل احدهم من النافذة ، وقال : «الى اين انتم ذاهبون ؟» كانت رائحة فمه تفوح بالخمر ووجهه احمر . امتدت يد توم الى ارضية السيارة والتقط يد الرافعة . امسكت الام بيده .

قال توم ببطء : « في الحقيقة نحن غرباء عن المكان سمعنا ان هناك عملاً في منطقة توليز ، نحن لم نرتكب اى خطأ ياسيدى » .

ـ « لقد اخطأتم الطريق ، نحن لا نريد اى اوكيين في هذه المدينة » .

تصلب جسم توم من الغضب لكنه اخذ يتكلم برقة .

وقال : « اى طريق نسلك ياسيدى ؟ »

ـ « خذ يمينك ثم اتجه ناحية الشمال ، ولا تعودوا الى هنا ، الا عندما يحل موعد جنى القطن » .

انتفض توم من شدة الغضب وقال : « حاضر ، ياسيدي » . ودار بالسيارة وعاد من نفس الطريق الذى

جاء منه . ربتت الام على ذراعه . وحاول توم ان يحبس دموع غضبه .

قالت الام : « لاداعي لان تضايق نفسك بسببهم . لقد تصرفت بشكل جيد » .

انحرف توم الى طريق فرعي وسار لمسافة مائة ياردة واطفأ الانوار وابطل محرك السيارة .

سألته الام : « الى اين انت ذاهب ؟ » .

ــ « سألقي نظرة فقط . لن نذهب الى الشمال » .

خلال لحظات سمع صراخ وعويل حيث كانت ألسنة النيران تتماوج في معسكرهم القديم . وخفت النيران اكثر توهجا وامكنهم سماع صوت طلقة . كان المعسكر يحترق . عاد توم الى السيارة ، واتجه جنوبا على الطريق السريع .

سألته الام : « الى اين نحن ذاهبون ؟ » .

اجابهم توم : « الى الجنوب . وسأحاول ان الف من خارج المدينة ولا ادخلها . سابحث عن المعسكر

الحكومي ، لا يوجد هناك مندوبون . هل تعلمين يا امي ، انني لو رأيت واحداً منهم فسوف أقتله » .

قالت الأم : « خذ الأمور ببساطة يا بني . لابد أن تكون صبوراً » .

فقال توم : « من الصعب أن يكون الانسان صبوراً طيلة الوقت » .

ضحكت الأم في هدوء وقالت : « أعرف . وهذا ما يجعلنا نخشى التعامل . وعلى كل فهم لن يوقفونا ، لاداعي للتوتر ، يا توم . فسيأتي زمان مختلف وتتحسن كل الأمور ، بالتأكيد » .

التفت توم للحظة ليتطلع الى أمه . كان وجهها هادئا مطمئنا وهناك نظرة غريبة في عينيها . لمس توم كتفها برقة وقال : « لم أسمعك تتكلمين كثيرا هكذا من قبل » .

فقالت : « لأنه لم يكن لدي الكثير لأتحدث بشأنه » .

انطلقت بهم السيارة عبر الشوارع الجانبية للمدينة

حتى عثروا على علامة عليها رقم ٦٦ ، فاتجه جنوبا على الطريق السريع .

قال : « وهـــكذا لن يجبرونا على التوجه الى الشمال . سنظل نمضي في طريقنا الى حيث نريد ، حتى ولو زحفنا » .

كانت اضواء السيارة واضحة امامهم تبدد ظلام الطريق الأسود السريع .

* * *

وهكذا اصبح هؤلاء المرتحلون مهاجرين الآن - فتلك العائلات التي عاشت وماتت على مساحة أربعين فدانا، انتقلت الآن الى الغرب الفسيح وبحث افرادها عن اعمال ؛ وتبعتهم عائلات اخرى كثيرة .

كان ملاك الاراضي في الغرب خائفين ، وأخذوا يقولون : « ان هؤلاء الاوكيين لصـــوص ، واغبياء واقذار . نحن نكرههم ، يجب أن نمنعهم من اخذ اراضينا » .

تاضل المهاجرون من اجل الحصول على عمل .
كانوا يحصلون على اجور ضــــــعيفة مقابل عملهم .
بالاضافة الى انه كلما قلت الاجور . ارتفعت الاسعار .

بعد ذلك اصبح الملاك سعداء . وبعثوا بطلبات كثيرة لجلب اناس كثيرين . واكتظت الطرق السريعة بالناس الجوعى الذين لا امل لهم في الحصول على عمل .

كان البوليس كريما في تعامله معهم ، بالرغم من أن هؤلاء الناس واطفالهم يتضورون جوعا . ولم يدرك ملاك الاراضي ان هؤلاء الجوعى ، من الممكن ان يثوروا عليهم .

وعلى الطرق السريعة ، كان المهاجرون يزحفون مثل النمل للبحث عن عمل ، عن الطعام . وبدا الغضب يزداد .

الفصل الثالث عشر

المعسكر الحكومي

كان الوقت متأخرا جدا والظلام حالكا للغاية ؛ واخذ توم يقود السيارة ببطء عبر الطريق الفرعي ، يبحث عن معسكر « ويد باتش » .

قال توم لأبيه : « انا لا أعرف اين يوجد المعسكر . من الأفضل ان ننتظر حتى يطلع النهار ونسأل أى شخص » .

اخيرا رأى المعسكر على مبعدة عدة مئات من الياردات . كان هناك سور من الأسلاك موازيا للطريق؛

انحرف بعده توم في طريق فرعي ، خرج رجل من منزل صغير مضاءة نافذته .

نزل توم من السيارة وقال له : « ايوجد مكان لنا ؟ » .

— « كم عددكم ؟ » .

احصى توم العدد على اصابعه وقال : « انا وابي وامي وآل وروزا شارون وروث ووينفيلد ، والاخيران طفلان » .

— « لابأس ، اعتقد انه يمكن استقبالكم ، تحرك بالسيارة حتى نهاية هذا الخط ثم انحرف يمينا . وستجد نفسك في المنطقة الصحية رقم ٤ » .

— « وماذا يعني ذلك ؟ »

— « يعني ان بها حمامات ومراحيض واحواض للغسيل » .

سألت الأم : « لديكم احواض للغسيل ومياه جارية وصنابير ؟ » .

— « بكل تأكيد » .

— قالت الأم : « شكرا لله ! » .

قاد توم السيارة عبر صفين من الخيام المظلمة .

قال له المشرف : « قف هنا . ودع الآخرين ينزلون حمولة السيارة ، في حين نقوم نحن بملأ الاستمارات » .

ترك توم الآخرين ، وصعد درجات سلم المكتب ودخل الى حجرة بها مكتب وكرسي . جلس المشرف واتخذ هيئة رسمية .

— « الاسم ؟ »

— « توم جوود » .

— « اهذا ابوك الموجود هناك ؟ »

— « نعم . واسمه توم جوود ايضا » .

— « امعكم نقود ؟ فالاقامة بالمعسكر تتكلف دولارا في الاسبوع . لكن اذا لم يكن معكم نقود ، يمكنكم المساعدة في تنظيف المعسكر » .

قال توم : سنقوم بعمل ذلك » .

ـــ « غدا ستقابلون اللجنة . وسوف يخبركم اعضاؤها بكل التعليمات المعمول بها هنا » .

قال توم : « لجنة ؟ تعليمات ؟ هل هم بوليس ؟ » .

ـــ « كلا ، هم زملاء لكم بمعسكرون هنا . انتخبناهم للعمل بالانابة عنا ، ويمكننا الاستغناء عن خدماتهم ايضا . لا يحضر البوليس هنا الا بناء على استدعاء منا . كما ان اللجنة تضم بعض السيدات ، وسوف يذهبن لرؤية والدتك . ومساء كل سبت يقام حفل راقص ، تقدم فيه احسن الرقصات فى المنطقة » .

قال توم : « سوف تعجب امي بهذا المكان ، فلم تعامل بمثل هذه المعاملة اللطيفة منذ زمن بعيد » .

قال المشرف : « والآن اذهب لتأخذ قسطا من النوم . فالمعسكر يستيقظ مبكرا » .

سار توم ببطء عائدا الى السيارة . ولاحظ ان الخيام منصوبة فى خطوط مستقيمة ولا يوجد حولها اى

قذارة . وخيمة آل جوود في آخر الصف ، حيث كل شيء هادئ .

قالت الام بوهن : « أهذا أنت يا توم ؟ هل كل شيء على ما يرام ؟ » .

— « كل شيء على مايرام ، ما عليك الا أن تنامي الآن يا أمي . سأحكي لك كل شيء في الصباح » .

قالت الام بهدوء : « تصبح على خير » .

صعد توم الى صندوق السيارة ، واستلقى على ظهره وتطلع الى النجوم الصافية المتلألئة .

* * *

عندما استيقظ توم كانت الدنيا ماتزال ظلاما ، والجبال الشرقية تبدو ككتلة سوداء أزاء تباشير الفجر المنبعثة من خلفها . فنزل من صندوق السيارة .

وبجوار أحد الخيام رأى نارا مشتعلة داخل فرن قديم أسود . فاتجه ناحية الفرن ببطء ، حيث كانت هناك فتاة تعد طعام الافطار . وزكمت انفه رائحة الخبز واللحم المشوي .

خرج من الخيمة رجلان احدهما كبير والآخر شاب ، وعندما شاهدا توم قالا : « صباح الخير » .

كانت الفتاة تعمل في هدوء ، وضعت اللحم في طبق واخرجت الخبز من الفرن . قال الرجل الكبير لتوم :

ــ « هل تناولت افطارك ؟ » .

ــ « كلا ، لم افطر ، فمازال اهلى نائمين . لقد وصلنا في وقت متأخر ليلة أمس » .

ــ « حسن ، اجلس معنا اذن ، فلدينا وفرة من الطعام والحمد لله » .

ملأت الفتاة الأطباق ثم اخذت تصب القهوة .

قال الشاب : « نحن نعمل منذ اثنى عشر يوما . واستطعنا شراء ملابس لنا . كما اننا نأكل جيدا لمدة اثنى عشر يوما » .

طلع ضوء النهار . وانتهى الرجلان من الأكل ثم وقفا .

قال الرجل الكبير : « حان وقت الذهاب » .

وقال الشاب : « نحن نعمل . نمال معنا . فربما نستطيع أن نجد لك عملا » .

قال توم : « هذا كرم كبير منكما . دقيقة واحدة . ساخبر أهلي » .

كانت روث مستيقظة عندما تطلع توم داخل الخيمة فنهضت وخرجت الى خارج الخيمة .

قال لها توم : « اسمعي . قولي لهم انني وجدت فرصة عمل . وقولي لامي بانني قد تناولت افطاري مع جيراننا . لا توقظيها الآن » .

فاومأت روث براسها .

* * *

بدأت الحياة تدب في المعسكر . وبدأت النسوة في اعداد الافطار في الافران الجديدة .

قال الرجل الكبير لتوم : « المكان ليس بعيدا ،

يمكننا الوصول اليه سيرا على الاقدام . مما جعلنا نبيع سيارتنا . فالعمل الذى نقوم به يدر مبلغا لاباس به . نحن نحصل على ثلاثين سنتا في الساعة » .

سار الرجال الثلاثة مبتعدين عن الطريق السريع ، خلال مزرعة فاكهة حتى وصلوا الى بيت ابيض ، خرج منه رجل ذو وجه احمر .

قال الرجل الكبير : « صباح الخير ياسيد توماس . معنا صديق ، فهل توجد له فرصة عمل ؟ »

قطب الرجل ذو الوجه الاحمر جبينه ، وقال : « بالتاكيد ! ساعهد اليه بعمل . وكذلك لاى شخص . لكنكم لن تتقاضوا ثلاثين سنتا اليوم ؛ بل خمسة وعشرين سنتا . لست انا الذى قرر ذلك . لقد ابلغتني جمعية المزارعين مساء امس بان الاجر اصبح خمسة وعشرين . واذا لم ادفع طبقا لذلك فلن احصل على سلفة البنك العام القادم » .

اطرق الرجلان بوجهيهما الى الارض وقالا : « سنعمل » .

فقال توم « وأنا بالتأكيد ساعمل ، فأنا فى حاجة الى العمل » .

تطلع توماس الى ساعته وقال : « هيا ، دعونا نبدأ » . ثم تطلع الى اعلى وقال : « ساقول لكم شيئا ، على شرط الا تقولا اننى اخبرتكم به . خذوا حذركم اثناء حفل الرقص يوم السبت القادم ، سينشب عراك فى المعسكر يوم السبت . سيقتحم المعسكر بعض الرفاق ويثيرون شغبا ، وسيكون البوليس جاهزا لاقتحام المعسكر » .

قال توم : « لماذا ؟ بحق الله .. فاهل المعسكر لا يسببون اذى لأى احد » .

فقال توماس : « سأقول لكم السبب ، الناس هنا تقول ان سكان معسكرنا يعيشون عيشة طيبة . وبالتالى فانهم اذا انتقلوا الى اى معسكر فسوف يسببون متاعب . والآن هيا الى العمل . ارجو الا اكون قد تكلمت كثيرا . لكننى احبكم حقيقة ايها الناس » .

تناول الرجال المعاول والفؤوس من المخزن وشرعوا في العمل .

ورفع توم معوله وقال : « حمداً لله على ذلك » .
ثم بدأ يعمل ، وانساب العرق من فوق جبينه الى رقبته .

* * *

وقفت الأم امام الخيمة تتطلع الى اعلى واسفل .
اما آل وروزا شارون والأب فقد كانوا مايزالون نائمين ،
في حين خرول الطفلان وينفيلد وروث اليها .

قالت الأم عندما رأتهما : « كنت في منتهى القلق عليكما ، لأنني لم اعرف اين ذهبتما . هل رأيتما توم ؟ » .

فاجابت روث بعدم اهتمام : « قال لي توم ان اخبرك بانه وجد عملا . لقد خرج من المعسكر ليعمل » .

اقبلت الأم على روث واحتضنتها .

قالت روث وهي تشير الى مبنى الحمامات :
« لديهم حمامات ودورات مياه . لقد ذهبت الى هناك » .

انطلق الطفلان يلعبان وبقيت الأم وحدها . ثم توجهت الى مبنى الحمامات ، واخذت تتطلع داخلها . كانت دورات المياه على صف واحد في صالة واسعة ، وكل دورة مياه وحدة مستقلة لها باب . اما الأحواض فكانت مصفوفة على الجانب الآخر . وفي الواجهة توجد أربعة ادشاش مستقلة . كان كل شيء نظيفا أبيض .

فتحت احد صنابير المياه بأحد الأحواض . وعندما اندفعت المياه الساخنة منه أبعدت اصبعها . تطلعت الى الحوض ووضعت السدادة في فتحة الحوض ، وفتحت صنبور المياه الباردة اضافة الى صنبور المياه الساخنة . غسلت وجهها ويديها وبللت شعر راسها بالماء .

سمعت صوتا فالتفتت تجاهه ، فوجدت رجلا يقف خلفها وقال غاضبا : « ما الذى تفعليته هنا ؟ » .

تطلعت الأم اليه وقالت : « اظن أن هذا المكان لاستخدامنا » .

قطب الرجل جبينه وقال : « هذا المكان مخصص

للرجال » ، واشــار الى لافتة على الباب مكتوب عليها « للرجال » .

قالت الام : « انا لم ارها على الاطلاق ، لكن اليس هناك مكان يمكن الذهاب اليه ؟ » .

ابتسم الرجل وقال : « هل وصلت توا ؟ » .

ــ « في منتصـف الليل » .

ــ « اذن لم تلتق بك اللجنة النسائية بعد . سوف يلتقون بك ويخبرونك بكل شيء ، وعلى كل فحمامات النســاء على الجانب الآخر من المبنى » .

قالت الام : « لا اعرف كيف اشكرك » ؛ واسـرعت عائدة الى الخيمة .

وقالت : « انهض يا زوجي ، وانت يا آل ، انهضـا لتغتسلا » . ثم بصـوت عال : « انهضـوا كلكم ! » .

سالها الاب : « ما الحكاية ؟ » .

ــ « اللجنة النسائية ستزورنا ، يجب علينـا ان

نغتسل ونتلهى من انتظارنا سريعا » . وبدات تشعل النار .

وقالت لنفسها : « يجب أن ننتهي من ذلك سريعا . سريعا » .

خرجت روزا شارون من الخيمة وهي نصف نائمة .

فقالت لها الام : « اذهبي الى الحمامات مباشرة واغتسلي » . ثم اردفت وهي اكثر اضطرابا : « وارتدي فستانا نظيفا وصففي شعرك » .

قالت روزا شارون : « انا لا اشعر بانني على ما يرام ؛ وليست بي رغبة لعمل اي شيء دون وجود كوني » .

التفتت الام الى روزا شارون وقالت بغضب : « دعك من ذلك الشعور بالاسى ! » .

— « انا لا اشعر بانني على ما يرام ؛ يداهمني احساس بانني سامرض » .

ــ « بمجرد أن تغتسلي ، سوف تشعرين أنك على ما يرام . البسي حذاءك وصففي شعرك » .

عندما عاد الأب ، قالت له الأم : « لقد حصل توم على عمل . أخرج لنفسك ملابس نظيفة من هذا الصندوق . ثم خذ روث ووينفيلد ، واجعلهما يغتسلان جيدا بالماء الساخن ، فأنا مشغولة ! » .

وعادت الأم لتواصل الطهي وسرعان ما فاحت رائحة تحمير اللحم ، وعبق القهوة القوية .

عاد الأب بالطفلين ، ووجهاهما نظيفان مشرقان .

قالت : « يبدوان في منتهى الجمال . الطعام جاهز هيا كلوا ! » .

عاد آل من الحمام منتشيا وقال : « ياسلام ! ياله من مكان ! . سنذهب بعد الافطار للبحث عن عمل . فلابد أن نشتري وقودا للسيارة » .

وعادت روزا شارون وشعرها مبلل ومصفف بعناية ، وبشرتها تلمع ووردية . وارتدت فستانا أزرق

منقوشا بزهور بيضاء قليلة ، كما لبست في قدميها حذاء عرسها .

سألتها الأم : « أخذت حماما ؟ » .

اومات روزا شارون برأسها .

قالت الأم : « سوف آخذ حماما عندما انتهي من اعداد الطعام . ارجو ان تريني كيف استخدمه » .

قالت روزا شارون : « سوف آخذ حماما كل يوم . قالت لي احدى السيدات ان هناك ممرضة تأتي كل اسبوع . وبامكانها ان تخبرني بما يجب على ان أفعله حتى يولد الطفل قويا . وهناك شيء آخر ايضا . لقد ولد طفل في الأسبوع الماضي ، واقاموا له حفلا وزعوا فيها الكعك ! » .

قالت الأم : « شكرا لله ، ان حضرنا الى هنا حيث اهلنا . فهؤلاء الناس من ولايتنا » .

توجهت الأم الى الخيمة واخرجت لنفسها رداء نظيفا

وحذاء ، وقالت : « لو حضرت اولئك السيدات قولي لهن ، انني ساعود حالا » .

جلست روزا شارون بتؤدة فوق صندوق واخذت تتطلع الى حذائها الاسود . ووضعت يديها على بطنها وابتسمت ابتسامة غامضة .

عندما عادت الام كانت ترتدي رداء نظيفا وحذاء ، ويتدلى من اذنيها قرط صغير .

قالت : « لقد استخدمت الدش . وقفت تحته وتركت الماء الدافىء يغمرني من كل مكان » ثم تطلعت حولها وقالت : « كنت جالسة هنا لا تفعلين شيئا ! تعالي ! علينا ان نرتب كل شيء ، هيا قومي بترتيب الاسرة » .

نهضت روزا شارون ببطء .

وسالت امها : « هل تعتقدين ان كوني سيعود اليوم ؟ » .

— « ربما نعم ، وربما لا . لا أعرف . سوف يعود

عندما يعود ، والآن هيا للعمل . هاهن السيدات قادمات ، هيا الى العمل حتى يتسنى لي أن اتباهى بك ! .

* * *

عندما انصرفت اللجنة النسائية ، جلست الأم على صندوق خارج الخيمة .

وقالت : « يالهن من نساء لطيفات ! » .

قالت روزا شارون : « أنا أستطيع العمل بالتمريض خاصة بالنسبة للتعامل مع الأطفال ، بعد ان أتعلم » .

أومأت الام برأسها وقالت : « الا يكون من الخير لو أن الرجال جميعا حصلوا على عمل ! . هم يعملون ، ونحن نعمل ، ويكون الجميع في احسن حال .. » .

* * *

قاد آل السيارة وبجانبه والده ، عبر طرق جميلة وبساتين ومزارع كروم ، وعند بوابة كل مزرعة كان

آل يبدىء من سرعة السيارة ، ليواجه يلافتة مكتوب عليها : « لســـــنا فى حاجة الى عمـــال ، لاداعى للدخول » .

قال آل : « سيكون هناك مجال للعمل يا ابى ، عندما تنضج الفاكهة . وبالنسبة لى اتمنى أن اعمل فى جراج ، فانا احب ذلك . هيا بنا نعود الى المعسكر ونسأل عما اذا كانت هناك فرص عمل أم لا . فنحن نستنفد وقودا بلا طائل » .

عادا ثانية بالسيارة الى المعسكر ، فوجد الام جالسة خارج الخيمة . سألته : « هل وجدت عملا ؟ »

اجابها : « كلا ، بحثنا عن عمل ، لكننا لم نجد اى عمل » .

قالت الام بأسى : « المكان هنا جميل . من الممكن ان نحيا سعداء هنا » .

قال الاب : « ذلك لو تسنى لنا الحصـــول على عمل » .

قالت الام : « نعم ، لو تسنى لكم الحصول على عمل . طول فترة ترحالنا لم اكن افكر فى اى شىء . اما الآن وانا اعيش بين هؤلاء الناس الطيبين ، بدأت افكر في الامور المحزنة التى مرت بنا ، خاصة تلك الليلة التى مات فيها الجد وبعده الجدة » .

قال الاب : « لكن توم حصل على عمل ، وسوف يعود هذا المساء » .

ابتسمت الام وقالت : « انه ولد لطيف ، اليس كذلك ؟ والآن ياروجى .. اذهب الى محل البقالة . فانا في حاجة الى بعض البقول والسكر وقطعة من اللحم والجزر .. لكي نعد وجبة طيبة للعشاء . الليلة سيكون لدينا وجبة عشاء ممتازة ! » .

الفصل الرابع عشر

الحفل الراقص

في صباح يوم السبت كانت النسوة يقمن بالغسيل عند صنابير المياه ثم ينشرن الملابس في الشمس . وبحلول فترة ما بعد الظهيرة كان المعسكر يعج بالحركة الرجال مشغولون في تجهيز ساحة الرقص . والجميع في حالة بهجة .

في السابعة كان العشاء قد انتهى وارتدى الرجال أفضل ملابسهم ، والفتيات ملابسهن القطنية اللامعة ، وشعورهن ناعمة مزينة بالشرائط الملونة .

كانت اللجنة المركزية تعقد اجتماعا في أحد

الاكواخ . كان هناك خمسة رجال ، ورئيس اللجنة يتحدث .

قال : « من حسن الحظ اننا اخطرنا بانه ستحدث بعض المشاكل في حفل الرقص » .

ساله احد الرجال : « كيف نتصرف لو ان احدا حاول تسلق السور للدخول ؟ »

ــ « سيكون لدينا خمسة وعشرون من رجالنا الاقوياء سيشاركون بالرقص وفي نفس الوقت تكون فيه أعينهم مفتوحة لمنع اي محاولة لافساد الحفل . وفي اول بادرة للشغب سيتحركون معا ويطردون المشاغبين . كما انه لدينا خمسة رجال عند البوابة سيفحصون بعناية كل من يدخل » . واستطرد رئيس اللجنة : « لا نريد أي اصابات . فلو حدث أي اشتباك فان البوليس سوف يدخل المعسكر » .

بدات الدنيا تظلم ، تاضيئت الانوار حول ساحة الرقص . وبدا الناس يخرجون من خيامهم ، والضيوف يتوافدون في سياراتهم ، صغار المزارعين ومهاجرون

من معسكرات اخرى . وعند البوابة كان كل ضيف يعلن اسم من دعاه من اهل المعسكر .

ابتسم آل لنفسه في المرآة ، وسار متجها نحو ساحة الرقص ، وعيناه مفتوحتان على الفتيات الجميلات .

اما توم فقد تناول آخر لقمة من عشائه . فسألته امه : « الن تذهب للرقص ؟ » .

قال توم : « بالتاكيد ، فانا عضو باللجنة ، ومكلف بمراقبة دخول الضيوف عند البوابة » .

سألته الام : « الن يحدث اي شغب ؟ » .

قال توم : « على الاطلاق . يجب ان اذهب الآن . اراك في الحفل يا امي » .

انتهت الام من غسيل الاطباق ثم نادت على من بداخل الخيمة .

ـ « روزا شارون . هيا اخرجي . الن تذهبي للحفل الراقص ؟ » .

خرجت من داخل الخيمة وقالت : « كنت سأذهب ، لكنني الآن لا أعرف . اذ يخيل لي ان الناس تنظر الى على انني كبرت على الرقص . وكم كنت اود ان يكون زوجي كوني موجوداً » .

وقبلت الأم قبلة ابنتها ووضعت يديها على شعرها وقالت : « أنت انسانة طيبة ولسوف اتولى رعايتك . سوف نذهب لهذا الحفل وسوف تجلس وتشاهد فقط . تحسبا لحدوث اي شيء . وهذه حقيقة » .

* * *

وقف توم عند البوابة ، واخذ يراقب الناس عند دخولهم للحفل الراقص ، راقب أسر المزارعين الصغار والمهاجرين المقيمين في معسكرات أخرى . وتجاذب أطراف الحديث مع الشاب الذي يقف الى جواره .

— « ان مواطنينا لا يملكون شيئا . لكن دعوتهم الناس للرقص تجعلهم فخورين بأنفسهم وتعيد لهم البهجة والسعادة » . وفجأة قال الشاب : « انظر ! » .

كان هناك ثلاثة شبان يعبرون البوابة ، بعد أن تحدثوا مع الحارس .

اتجه الشاب نحو الحارس وساله : « من الذى وجه اليهم الدعوة للحضور ؟ » .

ـ « شخص يدعى جاكسون ، يعيش بالوحدة الرابعة » .

عاد الشاب الى توم وقال له : « اعتقد أن هؤلاء الاشخاص قد حضروا الى هنا لاثارة الشغب ، اتبعهم انت . بينما سأذهب انا لأحضر جاكسون من الوحدة الرابعة » .

خلال مدة دقائق كان الشاب قد عاد ومعه جاكسون .

قال له توم : « هل دعوت هؤلاء الاشخاص ، يا جاكسون ؟ » .

ـ « كلا ! » .

ـ « هل رأيتهم من قبل ؟ » .

قال جاكسون : « بالتأكيد . لأنني عملت معهم . وذلك هو السبب في معرفتهم لاسمي » .

ـ « شكرا ياسيد جاكسون ، أعتقد انهم من مثيري الشغب . سألفت نظر رجالنا لهم » .

من خلال الحشد اندفع صبي في السادسة عشرة من عمره وقال :

ـ « هاي ! هناك سيارة بها ستة رجال وقفت بجوار الاشجار القريبة من السور ، وهناك سيارة اخرى على الطريق بها أربعة رجال . كلهم يحملون البنادق لقد رايتهم » .

* * *

كان موعد بداية الرقص قد حل ، ووقف الشبان والشابات والرجال والنساء على ساحة الرقص ، على استعداد وانتظار للبدء .

بدأت الموسيقى وبدأ الرقص ، وتحرك الراقصون اسرع فاسرع . فتطايرت خصلات شعر الفتيات ،

وتفصد العرق على جباه الشبان . وشرع كبار السن الجالسين حول ساحة الرقص في التصفيق والدق بارجلهم مع الايقاع .

ابتسمت الام وقالت لروز' شارون « يذكرني ذلك بالايام الخوالي ، كان ابوك راقصا ممتازا عندما كان شابا » .

فجأة توقفت الموسيقى . انتهت الرقصة الاولى ، وظل الراقصون ثابتين في اماكنهم ، بينما اندفع الاطفال يطاردون بعضهم البعض بجنون حول ساحة الرقص .

اما افراد الفرقة الموسيقية فقد انتصبوا واقفين ليفردوا اجسادهم ثم جلسوا ثانية .

تقدم راقصون جدد للمشاركة في الرقص ، ووقف توم بالقرب من الشبان الثلاثة ورآهم يدفعون انفسهم الى حلبة الرقص ، فتقدم اثنى عشر رجلا ببطء تجاه حلبة الرقص واخذوا يراقبونهم .

قال احد الغرباء : « سأرقص مع هذه الفتاة ! » .

لتطلع اليه شاب فى دهشـــــة وقال : « انها رفيقتى » .

ــ « اسمع ، يا انت » !

فى الظلام خارج المعسكر سمع صوت صفير ، وفوق حلبة الرقص حرص الغرباء الثلاثةبهدوءوباحكام شديد ، حتى اخرجوهم من حلبة الرقص . وبدا العزف وبدا الرقص مرة ثانية .

وصلت سيارة الى بوابة المعسكر .

صاح السائق : « افتح ! لقد سمعنا بحدوث شغب عندكم » .

لم يتحـــرك الحارس من مكانه ، وقال : « ليس لدينا اي شغب ، استمعوا الى الموسيقى . من انت ؟ »

ــ « نائب المامور ! » .

ــ « هل وصلكم استدعاء ؟ » .

ــ « لسنا فى حاجة الى استدعاء اذا كان هنالك شغب » .

فأعاد الحارس كلامه : « ليس لدينا أي شغب هنا ؟ » .

تحركت السيارة ببطء ناحية الطريق وتوقفت .

وخلف حلبة الرقص في الظلام قبض على الرجال الثلاثة » .

قال رئيس اللجنة : « أهؤلاء مثيرو الشغب ؟ دعونا ننظر اليهم » .

أطرق الرجال الثلاثة برؤوسهم ناحية الأرض .

واصل رئيس اللجنة كلامه : « ما هو القصد من اثارتكم للشغب ؟ ومن الذي حرضكم على فعل ذلك ؟ » لم يجيبوا على سؤاله فواصل كلامه : « انتم مواطنون مثلنا ، ومنا ، من الذي حرضكم لافساد حفل الرقص ؟ »

قال أحد الغرباء : « الانسان منا يريد ان يحصل على طعامه » .

ــ « من الذي ارسلكم ؟ من الذي دفع لكم للحضور الى هنا ؟ » .

— « لم يدفع لنا أحد » .

— « آه فهمت ، طالما لم يحدث شغب ، فلن يدفع لكم ، أليس كذلك ؟ » .

قال أحد الثلاثة : « افعل بنا ما تراه ياسيدي . فنحن لن نقول لك أي شيء ؟ » .

قال رئيس اللجنة : « أرجو أن تنصتوا الى جيدا . أنتم محظوظون هذه المرة . سوف نطلق سراحكم . لكن لو حدث ورأيناكم هنا مرة ثانية فسوف نضربكم ضربا مبرحا . هيا ، اقذفوا بهم خارج السور » .

وعلى حلبة الرقص ، بدأت الفرقة الموسيقية عزف لحن جديد .

الفصل الخامس عشر

جمع الخوخ

ذات مساء والشمس الغاربة مغطاة بالسحب ، اجتمعت عائلة جوود كلها في معسكر ، ويد بلتش ، بعد أن انتهوا من طعام العشاء ، حيث شرعت الأم في غسيل الأطباق .

فجأة قالت الأم : « لابد أن نفعل شيئا » ، وأشارت الى وينفيلد : « انظروا اليه ، لا يستطيع النوم جيدا ، هو ليس على مايرام ، وتوم عمل لمدة خمسة ايام فقط ، لم يجد أحد آخر فرصة عمل على الاطلاق ، وليس

لدينا طعام الا ليوم واحد . ولن ينهض احد منكم حتى نقرر ماذا نفعل » .

تطلعوا الى الارض ، واخـــذ الاب يطلم الطائرة السميكة بسكينة .

قالت الام بغيظ : « ماذا يحدث لهذه العائلة ؟ » .

قال الاب : « اعتقد انه ينبغي علينا ان نرحل من هنا . صحيح انا لا ارغب فى ذلك ، فالمكان هنا لطيف والناس طيبون . لكن يتحتم علينا ان نحصـــل على طعامنا » .

قال آل : « خزان السيارة مليء بالوقود ، وهذا يتيح لنا الذهاب الى اى مكان آخر » .

قالت الام : « انا لن اقف مكتوفة الأيدي لاشاهد هذه العائلة وهي تتضور جوعا . فروزا شارين سوف تلد طفلها . ولابد أن تتغذى جيدا » .

قال الاب : « لكن هنا توجـــد حمـــامات ومياه ســاخنة .. ودورات مياه » .

قالت الام : « اذا لم ناكل ، فلن نذهب الى دورات المياه » .

قال آل : « قال لي شخص ان محصول القطن في منطقة قريبة من هنا تجاه الشمال ، حان وقت جنيه .

قالت الام : « اذن يتحتم علينا ان نذهب الى هناك، وبسرعة » .

سأل توم : « متى ؟ » .

اجابت الام : « نرحل في الصباح . لقد اخبرتكم بما لدينا من طعام » .

زمجر الاب غاضبا ، وقال : « لقد تغير الزمن . النساء يقررن بدلا من الرجال ما ينبغي عمله » . ثم نهض غاضبا ومشى بعيدا .

قالت الام بزهو الى توم : « لا تخش عليه . اذا استطعت ان تغضب رجلا قلقا ، فسيكون بعدها على ما يرام » .

قال توم : « لقد بدأت أتعب ، يا أمي . فكيف السبيل الى اغضابي ! » .

قالت الأم : « لست في حاجة الى أن أغضبك ، فانت لن تستسلم ابدا ، يا توم » .

قال توم : « ساذهب لأرى السيارة » . ومشى بعيدا .

كانت روزا شارون تجلس في هدوء أثناء حديثهم ، بعدها نهضت ببطء .

سألها الأم : « هل انت على مايرام ؟ » .

ــ « لم يعد لدي لبن » .

ــ « اعرف . ليس لدينا لبن » .

قالت روزا شارون : « لو أن زوجي لم يرحل بعيدا ، لكان لدينا الآن بيت صغير ، ولبن ، ان الطفل لن يكون على مايرام دون لبن » .

قالت الأم : « لا تقولي ذلك ابدا عن الطفل . ولا يراودك التفكير ابدا في ذلك » .

— « لازوج ، ولا لبن » .

قالت الأم : « لو كنت فى حالة غير ذلك ، لكنت صفعتك على وجهك » . ثم نهضت ودخلت الخيمة ، ومالبثت ان عادت وهى تفرد يدها وبها الحلق الصغير .

قالت : « انظرى ! انه لك ، خذيـــه ، انه ملكك الآن . سيكون طفلك على ما يرام » .

* * *

أخذ آل يتمشى بعيدا عن الخيمة وهو يصفر برقة ، ثم جلس عند طرف المعسكر ، لم تمض دقائق قليلة حتى جاءت فتاة شقراء جميلة الوجه وجلست بجوار آل .

قال آل : « سنرحل غدا » .

— « غدا ؟ الى اين ؟ » .

— « الى الشمال » .

سألته الفتاة : « لكننا كنا ســـــنتزوج ، اليس كذلك ؟ » .

ـــ « تريبـــا » .

قالت الفتاة : « تريبا ! لقد وعدتني ، وانت الآن راحل . هذا ليس عدلا » .

بدأت الفتاة في النهوض ، لكن آل امسك بها وجذب ذراعها الى اسفل ، ووضع يده على فمها . ولم تمض لحظة حتى كان الاثنان يضحكان في سعادة ، وهي مستلقية على ظهرها وآل منحن عليها .

سألته : « كم من الوقت تعتقد أنك ستبقى هناك ؟ »

ـــ « حوالى شهر » .

* * *

كان الوقت لايزال ظلاما عندما أيقظت الأم العائلة في الصباح .

قالت الأم : « هيا ! استيقظوا ! فلابد أن نكون على الطريق مبكرين . ليس لدينا قهوة . يوجد بعض البسكويت ، يمكننا تناوله على الطريق ، هيا ، حتى يمكننا تحميل السيارة » .

ارتدت العائلة ملابسها ، وحمل الرجال السيارة ووضعوا المراتب أعلى الحمولة .

قال توم : « كل شـــىء على مايرام ، يا امى . السيارة جاهزة ! » .

سارت السيارة ببطء اثناء خروجها من المعسكر وكذلك على الطريق ، وظل توم يقود السيارة حتى وصل الى الطريق السريع رقم ٩٩ ، عند ذلك انحرف يسارا تجاه « بيكرزفيلد » . واستمر فى القيادة مارا بمشارف المدينة وعبر الطريق السريع .

قال توم : « جو الصباح يغدو باردا ، فالشتاء على الأبواب . نرجو ان نكسب بعض النقود قبل حلوله » .

قالت الأم : « لابد أن نقيم فى بيت أثناء الشتاء ، ولابد من ذلك . لقد سمعت أنها تمطر بشدة هنا . لابد ان نقيم فى بيت حين يهطل المطر . فونالد ليس قويا بما فيه الكفاية ولا يتحمل » .

غدت أشعة الشمس اكثر اشراقا ودفئا . توقفت

سيارة على الجانب الآخر من الطريق ونادى رجل على توم .

ــ « هل تبحثون عن عمل ؟ » .

ــ « بكل تأكيد ، ياسيدى » .

ــ « أيمكنكم جمع الخوخ ؟ » .

قال توم : « يمكننا جمع أى شىء » .

ــ « عظيم ، هناك فرصة عمل كبيرة لكم ، على بعد أربعين ميلا تجاه الشمال ، اتجه شمالا حتى « بيكسلى » ثم انحرف شرقا لمسافة ستة أميال . ثم سل عن مزرعة « هووبر » ستجد عملا كثيرا هناك . اذهب الى هناك بأسرع ما تستطيع .

ــ « شكرا لك ياسيدى ، فنحن فى حاجة ماسة الى العمل » .

سارت العربة بهم عبر الحقول المشمسة وقت الصباح .

قال توم : « من المحتمل ان نحصـــل على عمل اليوم » .

قالت الأم : « لو وفقتم الى عمل ، فباستطاعتي ان اشتري بالاجل . واستطيع بالتالي ان احضر شيئا من القهوة والدقيق واللحم والصـــابون واللبن . ينبغي الحصول على لبن من اجل روزا شارون . لكن ترى أين سنقيم ؟ » .

كانت الام تجلس الى جوار آل وتوم في كابينة السيارة وهم في منتهى الســعادة .

قالت الأم : « لم اشعر بالراحه منذ فترة طويلة . من الممكن ان نستاجر بيتا لمدة شهرين . لابد أن نقيم في بيت . وساقوم بتخزين كم من الطعام » .

حوالي وقت الظهيرة وصلوا الى « بيكسلي » . ومضوا داخل المدينة الصغيرة ثم اتجهوا شرقا عبر طريق ضيق .

وبعد فترة ، وجدوا الطــريق امامهم مزدحمــا

بالسيارات . وعندما اقتربوا وجدوا رجل بوليس يرفع يده ليستوقفهم .

— « الى اين انتم ذاهبون ؟ » .

قال آل : « نحن نبحث عن عمل ، في جمع الخوخ » .

— « لاباس ! » وتحرك رجل البوليس الى جانب الطريق ، واستطاع آل ان يرى خمس سيارات منتظرة امامهم .

قال رجل البوليس بصوت مرتفع : « هذه هي السيارة السادسة ، يمكننا ان ندعهم يمرون » .

تحركت قافلة السيارات وامامها اثنان من راكبي الدراجات البخارية ، وخلفها اثنان كذلك .

قال توم : « انا لايعجبني ذلك . ما الذي يحدث ؟ »

انحرفت الدراجات البخارية عن الطريق وتبعتهم السيارات . ورأى توم صفا من الرجال والذين في

منطقة منخفضـــــة على جانب الطريق وهم يهتفون ويلوحون بقبضاتهم ، ثم فتحت بوابة كبيرة من الاسلاك ومرت السيارات الست عبر البوابة ثم اغلقت خلفها . وعادت الدراجات البخارية ادراجها .

كان هناك رجلان مسلحان بالبنادق يقفان على جانب الطريق صاح احدهما : « هيا ، هيا ، تحركوا ، ماذا تنتظرون بحق الجحيم ؟ » .

واصلت السيارات سيرها ثم انحرفت في منحنى بعدها وصلوا الى معســـكر جمع الخوخ . (بيتش كامب) .

كان المعسكر يتكون من خمسين وحدة سكنية اشبه بالصناديق لكل منها نافذة وباب ، مجموعة البيوت في شكل مربع ، وخزان مياه على طرف المعســكر ومحل صغير للبقالة على الطرف الآخر . وفي نهاية كل صف من البيوت كان يقف رجال مسلحون يضعون شارات فضية على شكل نجمة فوق قمصانهم .

ــ « تريدون العمل ؟ »

ـ « بكل تاكيد » .

ـ « الاسم ؟ » .

ـ « عائلة جوود » .

ـ « كم عددكم ؟ » .

ـ « ثلاثة رجال وامراتان وطفلان » .

ـ « كلكم قادرون على العمل ؟ » .

ـ « كلنا قادرون .. بالطبع » .

ـ « لاباس . ستقيمون فى البيت رقم ثلاثة وستين الاجر خمس سنتات مقابل كل صندوق ، هيا باشروا عملكم » .

كانت ارقام المســـاكن مكتوبة على الابواب بلون أحمر .

قال توم : « ثلاثة وستون . لابد أن يكون في تلك الناحية . واحد وستون اثنان وستون . هاهو ! » .

اوقف توم السيارة ، وهبطت العائلة واخذت تتطلع الي البيت باندهاش جاء اثنـان من المشرفين واخـذا يتطلعان الي عائلة جوود شذرا .

سـال احدهما : « الاسم ؟ » .

اجاب توم : « عائلة جوود اقول لك . ماذا هناك ؟ »

نظر احد المشـــــرفين في قائمة طويلة ، وقال :

« عائلة جوود . هذا الاسم ليس موجودا في القائمة ولا رقم السيارة ؛ لكن يبدو انهم سمحوا لهم بالدخول . على اي الاحوال ، نحن لا نريد مشاكل هنا ، قوموا بعملكم ولا تتدخلوا فيما لا يعنيكم ، بذلك تسير الامور على مايرام بالنسبة لكم » .

حملق توم فيهما .

فتحت الام باب البيت وخطت داخله . كانت الارضية قذرة ، والمكان عبارة عن غرفة واحدة وبها موقد قديم ولا شيء غير ذلك .

قالت روزا شارون التي كانت تقف خلف الأم :
« هل سنعيش هنا ؟ »

صمتت الأم للحظة ثم قالت أخيرا : « بالتأكيد . لن يكون سيئا الى هذا الحد اذا قمنا بتنظيفه . ولن يسمح بتسرب الماء عندما تمطر » .

قام الرجال بتفريغ حمولة السيارة في صمت . وداهمهم شعور بالخوف ، ازاء هذا السكون الذي يعم المكان . مرت بهم امرأة ، لكنها لم تنظر اليهم ، وظل « وينفيلد » و « روث » بجوار السيارة ، بالقرب من العائلة .

اثناء قيام الأب وتوم بحمل المراتب الى الداخل جاء الكاتب وسأل :

ـ « كم عدد الذين سيقومون بالعمل ؟ » .

قال توم : « ثلاثة رجال . هل العمل صعب ؟ هل يستطيع الصغار القيام به ؟ » .

ـــ « مجرد جمع ثمار الخوخ . خمس سنتات للصندوق . بامكان أى شخص أن يقوم بذلك ؟ » .

قالت الأم التي كانت تقف عند مدخل المسكن : « ليس لدينا ما نأكله ياسيدى . هل من الممكن أن تدفع لنا الآن ؟ » .

ـــ « كلا ، لكن ، بمجرد أن تقوموا بالعمل ، يمكنكم الشراء بالأجل من محل البقالة » .

قال توم : « هيا بنا اذن ، فلنسرع . الى أين نذهب ، ياسيدى ؟ » .

ـــ « أنا فى طريقى الى منطقة العمل . تعالوا معى » .

سار آل وتوم والأب فى شارع قذر ثم دخلوا المزرعة حيث كان الخوخ يتدلى كرات صغيرة مشوبة باللون الذهبى الأحمر ، من فوق الأشجار . كانت هناك أكوام من الصناديق الفارغة . كان العمال يقومون بجمع

الخوخ فى سلال ثم يقومون بوضعها فى الصناديق ، ثم يحملون الصناديق التي ملأوها للفراز .

قال الكاتب للفراز : « اليك ثلاثة من العمال » . ثم وجه كلامه الى الرجال الثلاثة : « ارجو ان تجمعوا الثمار بعناية . نحن لا نحتسب الثمار الفاسدة او المخدوشة . هاهى السلال ، هيا ابدأوا » .

قال توم : « هيا يا آل » .

انطلق توم يجرى بين الاشجار واخذ يعمل بسرعة سلة ، اثنتان ثلاثة ، امتلأ الصندوق ، فأخذه الى الفراز بسرعة .

وقال : « انا لا استطيع محاسبتك على هذا الصندوق . فالثمار كلها مخدوشة . لابد ان تجمعها برفق وتضعها بعناية فى الصندوق ، والا فسيكون عملك بلا جدوى » .

فشرع توم يقول : « لكن ، ياسيدى » .

— والآن اعمل بحرص ، فقد نبهتك قبل ان تبدأ »

انخفض توم جنبه وقال : « حاضر ، حاضر »
وعاد بسرعة لزميليه . وقال لهما : « من المحتمل ان يرمي كل ما تجمعان من ثمار ، لذا كانت مخدوشة . ضعا الثمار في السلال برقة ، ثم بعناية في الصناديق »

عاودوا العمل من جديد ، وتعاملوا مع الثمار برقة وعناية واخذت الصناديق تمتلىء ببطء شديد . واصلوا العمل بشكل مستمر طوال فترة ما بعد الظهيرة ، وبعد فترة حضر كل من وبنتبلد ورورث .

قال الاب لهما : « يجب عليكما ان تعملا معنا . ما عليكما الا ان تضعا الثمار بعناية في الصناديق » .

انقضت فترة ما بعد الظهيرة ، وحمل توم الصناديق المليئة الى الفراز قال توم : « هذه سبعة صناديق ، وهذا هو الثامن . المقابل اربعون سنتا ، من الممكن ان نحصل على قطعة لحم طيبة » .

خلال فترة ما بعد الظهيرة حضرت الام لتعمل معهم وقالت : « كان بودي ان احضر قبل ذلك ، لكن روزا شارون حالتها سيئة » . ثم تطلعت الى الطفلين

وقالت : « لقد اكلنا الكثير من ثمار الفوج سيمرضكم ذلك » .

عندما غربت الشمس ، كانوا قد ملأوا عشرين صندوقا .

وسأل توم المزارع : « أيمكننا أن نشترى بالأجر الآن ، مقابل الدولار الذي عملنا به » .

ــ « بالتأكيد ، سوف أعطيك ورقة لتشترى بها يساوى دولارا » .

أخذ توم الورقة واتجه ناحية الأم وقال لها : « اليك هذه الورقة ، يمكنك الآن شراء ما تشائين على الحساب فى حدود دولار من محل البقالة » .

قالت الأم : « ماذا تريد ان تأكل ؟ » .

قال توم : « لحم . لحم وخبز . وكمية وفيرة من القهوة المحلاة بالسكر » .

* * *

كان محل البقالة عبارة عن سقيفة كبيرة ، فتحت الام الباب وتلفتت الى الداخل ، حيث كان يقف رجل ضئيل الحجم أصلع وراء طاولة البيع .

قالت الام : « مساء الخير . معى ورقة بالشراء على الحساب فى حدود دولار » .

قال الرجل : « يمكنك ان تأخذى ما تشائين فى حدود دولار . أى شيء ترغبين فيه فى حدود دولار » . وضحك بصوت عال .

— « انا فى حاجة الى قطعة من اللحم » .

قال الرجل : « لدينا كل انواع اللحم . لحم الهامبورجر وسعر الرطل اثنى عشر سنتا » .

قالت الام : « اعتقد ان لحم الهامبورجر دسم جدا ، كما ان سعر الرطل لا يساوى أكثر من عشر سنتات » .

ضحك الرجل : « ربما يكون ذلك فى المدينة . واذا ذهبت الى المدينة سيكلفك ذلك جالونا من الوقود .

اتاخذين بعض العظام ! سعر الرطل عشر سنتات . يمكنك صنع حساء ممتاز » .

تنهدت الأم : « أعطني رطلين من الهامبورجر » .

ــ « حاضر ياسيدتي . وماذا غير ذلك ؟ » .

ــ « وشيئا من الخبز » .

ــ « من هذا ؟ ثمن هذا الرغيف الكبير خمسة عشر سنتا » .

فقالت الأم : « لكن ثمنه اثنى عشر سنتا » .

ــ « بالتأكيد ، اذهبي للمدينة اذن واشتريه باثنى عشر سنتا . أتريدين بطاطس ؟ خمسة ارطال بربع دولار » .

قالت الأم غاضبة : « انا أعرف سعر البطاطس ، من صاحب هذا المحل ؟ » .

ــ « الشركة ياسيدتي . وهي التي حددت الاسعار » .

نظرت الام اليه شذرا وقالت : « أعتقد ان كل من يحضر الي هنا لابد ان يصاب بالغضب ، وهذا هو السبب في انك تضحك انت خجل مما تفعله » .

لم يجب الرجل .

سألته الام : « ما سعر القهوة ؟ » .

ـــ اثني عشر سنتا للقهوة العادية ، ياسيدتي ، وبذلك يكون الدولار قد اكتمل .

قالت بسرعة : « لف الحاجيات ! » .

حملت الام الحاجيات ، ثم تذكرت السكر ، فقالت : ليس لدينا سكر . ابني توم يريد سكر . اسمع ، انهم يعملون بالمزرعة . الا يمكنك اعطائي بعض السكر ، على ان احضر لك الورقة فيما بعد ؟ » .

قال الرجل الضئيل الحجم برقة : « لا استطيع ، لان ذلك يدخلني في مشاكل » .

قالت الام : « لكننا سنحصل على المزيد من النقود ، اعطني سكرا بعشر سنتات » .

ــ « لكنهم سيتبضون على اذا فعلت ذلك » .
ثم تطلع الى الام وتخلى عن وجهه الخوف ولخرج عشر سنتات من جيبه . وتناول كيسا من السكر ووزنه ثم ناوله للام .

قالت الام بهدوء : « أشكرك . لقد تعلمت شيئا حقيقيا رائعا ، وهو انك لو وقعت في ورطة او كنت في حاجة للمساعدة ، فتوجه للناس الفقراء . فهم الوحيدون الذين يقدمون المساعدة ، الوحيدون فقط ! » .

اغلقت الباب خلفها ، واخذ الرجل يتطلع اليها بعينين مندهشتين وهي تمضي .

* * *

كانت النار تزار في بيت عائلة جورد . والام تعمل بسرعة بينما كانت روزا شارون جالسة فوق الصندوق .

سألتها الام : « هل تشعرين بتحسن الآن ؟ اجلسي فوق السرير فانا احتاج لهذا الصندوق للنار » .

عاد الرجال يمشون متثاقلين .

قال توم : « لحم ، بحق الله ! كما اشم رائحة قهوة ! انا جوعان . اين يمكن ان اغتسل ، يا امي ؟

ـــ « اذهب حيث خزان المياه هناك . خذ باقي افراد الاسرة معك » .

عادت الام الى الفرن . اخرجت الاطباق ووضعت قطعتين من الهامبورجر لكل فرد . وحبة كبيرة من البطاطس وثلاث شرائح من الخبز . عاد الرجال والماء يقطر من وجوههم وشعورهم .

تناولوا الاطباق واكلوا في صمت .

سألها توم : « الديك المزيد ، يا امي ؟ »

قالت الام : « لا ، هذا كل شيء ، هذا ما استطعت ان احضره مقابل دولار . فالاسعار هنا مرتفعة جدا . غدا ستعملون يوما كاملا ، وبالتالي سيكون لدينا الكثير » .

مسح آل فمه بكمه وقال : « أتمنى ذلك بالتأكيد ، لكننى مازلت جوعانا » .

ثم نهض وقال : « سأتمشى قليلا » . وسار فى الظلام .

بعد فترة نهض توم وقال : « سأذهب لأتمشى أنا أيضـــا . أريد أن أرى اذا كان هؤلاء الرجال مازالوا واقفين على الطريق أم لا » .

قالت الأم : « توم ، أرجوك لاداعى للدخول فى مشاكل » .

سار عبر الشارع ويداه فى جيبه . ورأى بالقرب من البوابة رجلين مسلحين . فاستدار بهدوء وسار فى الاتجاه المعاكس .

الفصل السادس عشر

تـوم فى ورطـة

سار توم حوالي مائة ياردة على الطريق ، ثم توقف وأخذ ينصت بعدها ترك الطريق واتجه ناحية اليمين . سار ببطء عبر الحقول حتى وصل الى سور المزرعة السلكي . تسلل من تحته ببطء شديد ، بعد أن رفع السلك من أسفل .

كانت هناك مجموعة تسير على حافة الطريق السريع . انتظر توم حتى مروا به ، ثم تبعهم .

على الطريق السريع كان يوجد جسر صغير يعبر

مجري مائيا ، وهناك أسفل الجسر رأى خيمة ، بداخلها فانوس مضيء .

هبط توم الى أسفل ، حيث كان رجل يجلس على صندوق أمام الخيمة .

قال توم : « مساء الخير » .

— « من أنت ؟ » .

— « مجرد عابر سبيل » .

صدر صوت من داخل الخيمة قائلا : « ماذا هناك ؟ » .

صاح توم : « كاسي ! مستحيل ! ماذا تفعل هنا ، يا كاسي ؟ » .

— « يا الهي ، توم جوود ! ادخل ، ادخل ! » .

جذب كاسي توم معه داخل الخيمة ، حيث كان يجلس ثلاثة آخرون .

قال كاسي : « هذا توم جورد ، الذى حدثتكم عنه ، اين عائلتك ؟ وماذا تعمل هنا ؟ » .

قال توم : « علمنا انه يوجد عمل هنا . فقادنا البوليس الى معسكر جمع الخوخ ، وعندما وصلنا الى بوابة المعسكر شاهدت مجموعة من الرجال تقف خارج المعسكر وهي تصيح . لذا فقد جئت الى هنا لاكتشف ماذا يحدث ؟ لكن ، كيف وصلت الى هنا ، يا كاسي ؟ »

قال احد الرجال : « لقد اضربنا عن العمل . توقفنا عن العمل . قمنا باضراب » .

قال توم : « صحيح ان خمس سنتات ليست بالكثير مقابل الصندوق ، لكنها تكفى بالكاد لكى ياكل الانسان » .

خيم صمت ثقيل على الخيمة ، وحملق كاسي فى الظلام .

وقال : « اسمع ، يا توم ، عندما جئنا الى هذا كان عددنا كبيرا . وقالوا لنا الاجر خمس سنتات لكل

صندوق . وعندما بدأنا العمل قالوا لنا سندفع سنتين ونصف ، وهذا لا يسد رمق أى انسان . فقررنا الا نعمل مقابل سنتين ونصف . وجاءت الشرطة وطردتنا خارج المعسكر . عندما ينتهي هذا الاضراب ، هل تعتقد انهم سيدفعون خمس سنتات ؟

قال توم : « انهم يدفعون الآن خمس سنتات » .

ــ « بعضنا لم يأكل منذ مدة ايام . عد الى المعسكر وقل للآخرين ما حدث . انتم تجعلوننا نتضور جوعا ، لانكم قبلتم العمل ، وسرعان ما سيأتي الدور عليكم وتتضورون جوعا والآن وقد طردونا فلن يمضي وقت طويل حتى يعطونكم سنتين ونصف . وهذا المبلغ لن يكفي لطعامكم » .

قال توم : « ساحاول ان اخبر الآخرين . لكنهم لن يتكلموا ، وخاصة في وجود كل اولئك الحراس المسلحين » .

قال كاسي : « اسمع ياتوم ، حاول ان تجعل كل

الآخرين يقومون باضراب . خاصة وان ثمار الخوخ ناضجة ولابد ان تجمع » .

قال توم : « لن يقوموا باضراب ، لانهم يتقاضون خمس سنتات الآن ، ولن يصغوا الى ، سيرفض والدى ذلك وسيقول هذا ليس من شأنه » .

قال كاسي باسي : « اجـــل . اعتقـــد انك على صواب » .

قال توم موضحا : « نحن لم يكن لدينا طعام . اما الليلة فلدينا لحم . وأبي لن يتوقف عن تناول اللحم . وروزا في حاجة الى لبن ، وامي لن تقبل ان تضحي بجنين ابنتها من اجل بعض الاشخاص الذين يتصايحون عند البوابة » .

خرج احد الرجال خارج الخيمة . وتبعه توم .

وقال : « انصت ! » .

قال توم : « اسمع اصواتا . هناك بعض الاشخاص قادمون نحونا » .

قال كاسي : « هيا بنا نهرب » . وتحرك الرجال بهدوء تحت الجسر .

صاح أحد الرجال القادمين : « هاهم هناك » .

سلط عليهم نور كشاف أعمى أبصارهم .

قال نفس الصوت في الظلام : « ها هو ذا » .

قال كاسي : « اسمعوا ، أنتم لا تقدرون ما تفعلونه أنتم تعملون على أن يتضور الأطفال جوعا » .

تقدم رجل قصير قوي البنيان تحت ضوء الكشاف وفي يده عصا غليظة .

قال كاسي : « أنتم لا تقدرون مدى ما تفعلونه » .

طوح الرجل القصير القوي بالعصا ، فاصطدمت بأحد جانبي رأس كاسي فسقط على الأرض .

فقال أحدهم : « يا إلهي ، أعتقد أنك قتلته ! » .

وركزت إضاءة الكشاف على رأس كاسي المصابة .

قفز توم تجاه العصا وأمسك بها . وأصابت أول ضربة منه كتف الرجل القصير القوي ، تلتها ثلاث ضربات متلاحقة على رأسه .

توقف توم في مكانه ، حدث هرج ومرج وصيحات ، ولم يشعر توم الا بضربة موجهة الى جانب رأسه . فجرى بمحاذاة المجرى المائي ، وهو منحنٍ ، ثم انحرف ناحية بعض الشجيرات واستلقى بينها ساكنا . بعدها عبر منطقة الحقول حتى وصل الى سور المزرعة وتسلل من تحته . كانت أنفه متورمة والدماء تقطر من ذقنه . استلقى على بطنه حتى يعاود أنفاسه . ثم غسل وجهه بشيء من الماء بأحد الحقول .

عاد الليل الى سكونه . عبر توم الحفرة ومنها الى الطريق ، حتى وصل الى البيت فوجد الباب مواربا .

جاءه صوت الأم هادئا ومباشرا . « من ؟ » .

— « أنا توم » .

— « طيب . فلأنم قليلا . آل لم يعد بعد » .

لم ينم توم فقد كان وجهه يضج بالألم .

وعاد آل ونام على الفور .

واخير حل الفجر وبدات الحركة تدب في البيوت المجاورة . نهضت الام وبدلت ملابسها ثم وقفت بجوار النافذة للحظة ثم ايقظت الاب .

قالت : « هل معك مزيد من النقود ؟ »

— « اجل ، معي ورقة بستين سنتا » .

— « اذن ، احضر لنا بعض الدقيق ووقودا للفرن . فالاولاد لابد ان ياكلوا ليبداوا العمل » .

ارتدى الاب ملابسه وخرج . واتجهت عينا الام الى توم ، فسارعت اليه عندما رات وجهه متورما وازرق اللون . كان خده مجروحا والدماء السوداء الجافة على شفتيه وذقنه .

همست الام : « توم ، ماذا حدث ؟ » .

— « لا تتكلمي بصوت عال . لم اتحمل الموقف

تنشلجرت . انا في ازمة . لا استطيع ان اعمل . لابد ان اختبيء » .

ــ « هل هي مشكلة خطيرة ؟ » .

ــ « اجل ، خطيرة ! » .

عاد الاب ، وكان الآخرون قد استيقظوا ، وتطلعوا الى توم .

حاول توم ان يجلس وقال : « يا الهي ، انا متعب جدا . لكنني ساحكي لكم كل شيء . بالامس عثرت على كاسي . لقد كان زعيم الاضراب الذي حدث عندما حضرنا الى هنا . هاجمه بعض الرجال وقتلوه . فجن جنوني . فامسكت بالعصا وضربت واحدا منهم .

ساله الاب : « هل قتلته ؟ » .

ــ « لا اعرف . لكنني حاولت قتله » .

ــ « هل راوك ؟ » .

ــ « اعتقد ذلك . فقد كان معهم كشافات يصوبونها نحونا » .

حملقت الأم للحظة فى مبتيه ثم قالت : « والآن هيا نتناول افطارنا . كسر لنا بعض الصناديق يا زوجى . لابد أن نعمل . واذا سألك أحد يا روث أو انت يا ويتفيلد عن توم ، قولا انه مريض » .

قام الأب بتكسير الصناديق وقامت الأم باشعال النار .

اقترب الأب من توم وقال : « كان كاسى رجلا طيبا لكن لماذا قام بالاضراب ؟ » .

اخبره توم بتفاصيل الموضوع ثم قال : « والآن ، مات كاسى . تلك هى نهاية الاضراب . سوف يعطوننا سنتين ونصفا اعتبارا من اليوم . وسوف ترون » .

تطلع الأب من النافذة وقال : « هناك مجموعة جديدة قادمة للعمل » .

قال توم : « اعتقد أنهم لن يعطونا الا سنتين ونصفا » .

التفتت الأم من امام الموقد وقالت : « اصغوا الى ،

الليلة سيكون طعامنا مقتبرا ، ليس امامنا سوى الدقيق. عندما يتوفر لنا من النقود ما يكفي لشراء وقود للسيارة سنرحل من هنا . فهذا المكان ليس جيدا . هيا . تناولوا طعام افطاركم واخرجوا للعمل » .

عندما خرج الاب وآل والطفلان . اخذت الأم طبقا وقدمته لتوم .

— « من الافضل ان تأكل شيئا » .

— « لا أستطيع يا امي ، وجهي يؤلمني جدا . لم اكن ادري بالذي كنت افعله . لكن ذلك الشخص الذي ضرب كاسي .. » .

قالت الأم : « سيكون كل شيء على ما يرام .. كم كنت اتمنى الا تكون هناك . لكنك قمت بالذي كان يجب عليك أن تفعله . لا اجرؤ على القول بانك اخطأت » .

ذهبت الي الموقد وغمرت قطعة قماش في الماء الساخن .

وقالت : « ضع هذه على وجهك » .

قال توم : « ساهرب الليلة يا امى . انا لا اود ان اجلب لكم المشاكل » .

قالت الام غاضبة : « لن تهرب يا توم . العائلة هكذا تتفسخ . وروزا ستلد طفلها . ونحن فى حاجة اليك . لا تهرب يا توم . ابق معنا وساعدنا » .

قال توم : « حاضر . رغم اننى اعرف انه لا يجب على ان ابقى هنا » .

ــ « حاول ان تنام الآن . وساذهب انا للعمل . وانت يا روزا اذا حضر اى شخص لا تدعيه يرى توم . توم مريض . هل فهمت ؟ لا تدعى اى احد يراه » .

استلقى توم ساكتا ، وحاول ان ينام .

ــ « توم ! » .

تطلع توم الى اخته روزا شارون التى كانت عيناها تبرقان بالغضب وقال : « نعم ؟ » .

— « لقد قتلت شخصا ! وهذا ليس أول شخص تقتله » .

— « لا ترفعي صوتك ! أتريدين أن يحضر أحدهم الى هنا ؟ » .

قالت بصوت مرتفع : « وماذا يهمني في ذلك ؟ يا للظروف التي سألد فيها طفلي ! . لقد رحل زوجي « كوني » ولا أتغذى جيدا ، ولا أشرب اللبن . وتأتي أنت الآن وتقتل شخصا » .

— « اسكتي ! » .

فردت روزا شارون : « ابتعد عني . فأنا لا أريد أن أرى وجهك » . وغطت رأسها بملاءتها ، وسمعتها توم تبكي .

نهض توم وتوجه الى فراش أبيه ، حيث كانت توجد بندقية طويلة وثقيلة تحت المرتبة . أخذ البندقية وعاد الى فراشه ووضعها الى جواره ، ثم استلقى على الفراش وغطى وجهه بالملاءة .

بالخارج كانت هناك عربات تروح وتجيىء واصوات اناس .

ــ « أنت تذهب الى البيت رقم ٢٥ » .

ــ « حاضر ياسيدي . كم تدفعون ؟ »

ــ « ستقان ونصف » .

ــ « ماذا ، انها لا تكفي لكي يسد الانسان رمقه »

ــ « اما ان تقبل ، او تنصرف لحال سبيلك . لست انا الذي يحدد الاجــــر . كما انه ليس لدي وقت للنقاش » .

ــ « قلت المنزل رقم خمســة وعشرون ؟ »

ــ « نعم ، خمســة وعشرون ! » .

الفصل السابع عشر

سر العائلة

قبل حلول المساء بقليل عادت الام الى البيت وطرقت الباب .

ـ « انه انا » . ثم سألت : هل حضر احد بعد خروجي ؟ » .

قال توم : « كلا . كيف حال الجمع اليوم ؟ سمعت أنهم خفضوا الاجر » .

قالت الام : « لا يحقق اي شيء بالمرة لرجوعك لاداعي للكلام في هذا الموضوع » .

غدت الدنيا اكثر ظلاما ، فاوقدت الام الفانوس ووضعت بعض دقيق الاذرة في الماء الساخن .

— « روزا شارون ، تعالي لتقلبي العصيدة »

بالخارج كان هناك وقع اقدام تجري ، انفتح الباب بشدة واندفعت روث داخلة .

— « ماما . وينفيلد مريض جدا . لونه شاحب وسقط على الارض . لقد ظل ياكل الخوخ طوال اليوم ! » .

اسرعت الام تجري بصعوبة في الشارع مع ابنتها الصغيرة . فقابلها رجل يحمل وينفيلد ، فاندفعت الام نحوه .

وقالت : « انه ابني ، ناولني اياه » . . تناولت الولد الصغير ثم قالت للرجل : « شكرا لك » .

عادت الام مسرعة وارقدته على احد المراتب .

قال توم : « انه جائع . ليس لديه طاقة . احضري له كوبا من اللبن ليشربه » .

عاد الأب وآل الى البيت يحمـــلان بعض فروع الاشـجار للنار .

قالت الام : « كم حصلنا من نقود اليوم ؟ » .

ــ « دولار وخمسة واربعون سـنتا » .

ــ « اذن ، اذهب مباشرة الى محل البقالة واحضر علبة لبن لوينفيلد ، فهو مريض » .

فقال : « اتأكل عصيدة بعد يوم عمل شاق ، هذا ظلم ؛ الانســان فى حاجة الى ان يأكل لحما اذا كان عليه ان يعمل ! »

قالت الام : « اجلس وانت ساكت . فهناك اشياء اخرى اكثر اهمية . آل ، هل لدينا ما يكفى من الوقود السـيارة ، لكى نرحل ؟ » .

قال آل : « حوالى ربع الخزان » .

ــ « لابأس ، سـوف نناقش ذلك بعد تناول العصيدة » .

عاد الاب بعلبة اللبن ، اخذت الام العلبة وملأت كوبا وناولته لتوم » .

ــ « أعطه لوينفيلد » .

ــ « لا استطيع ان اشربه . سأتقيأه » .

ــ « لا يلمس احد منكم هذا اللبن . فهو من اجل وينفيلد يشربه فيما بعد » .

فقالت روزا شارون : « انا لم اشرب لبنا منذ فترة . يجب ان آخذ شيئا » .

قالت الام : « انا اعرف ، لكنك لست مريضة مثل ذلك الولد ، والآن هيا نأكل . يمكنكم استعمال السكر مع القهوة او العصيدة ، لكن ليس مع الاثنين » .

جلس وينفيلد ، وشرب اللبن ، ثم تناول المزيد منه ، واعطت الام باقي اللبن لروزا . ثم صبت القهوة في الاكواب .

قالت الام : « والآن ، قل لنا ماذا حدث اليوم في العمل ، يا زوجي . اما انت ياروث ويا وينفيلد ارجو

الا تكونا قد قلتما لأى شخص عما سمعتماه • لان ذلك من شأنه ان يحطم عائلتنا » .

قال الاب : « لقد خفضوا الاجر كما قلت يا توم ، كان العمال الجدد فى منتهى الجوع ، وكانوا على استعداد للعمل بما يحقق لهم نصف رغيف .

قلت للفراز نحن لا نستطيع ان نعمل مقابل سنتين ونصف للصندوق .

فقال الفراز : « هؤلاء على استعداد للعمل • فقلت : لن يستمروا فى العمل عندما يصابون بالاجهاد • قال : هذا لا يهمنا فى شىء ؛ لأن المحصول سيكون انتهى جمعه » .

قال توم : « هل سمعت اى شىء عن الموضوع الآخر ـ الرجل الذى ضربته ؟ »

صمت الأب للحظة ، ثم قال أخيرا : « يبدو انك فى ورطة حقيقية . فليس للناس حديث سوى ذلك . ولقد بعثوا برجالهم للبحث عن الشخص الذى ضربه » .

قال توم : « لكن ذلك الشخص لم يفعل ذلك إلا بعد أن قتلوا كاسي » .

قال الأب : « ليس ذلك ما يقولونه ، بل يقولون أن الشخص هو الذي ضرب أولا » .

سأل توم : « هل يعرفون شكل ذلك الشخص ؟ »

— « يعني ليس بالضبط . لكنهم يعتقدون أنه لابد أن يكون .. » .

وضع توم يده ببطء على وجهه .

قال توم : « أعتقد يا أمي ، أنه يتحتم على ذلك الشخص أن يهرب » .

اندفعت روث قائلة : « أمي ، أنا ووينفيلد نعرف أن توم هو الذي فعل ذلك . وتعلم أنه الشخص الذي تتكلمون عنه » .

أيضم توم : « وذلك الشخص لايريد أن يجلب لكم المشاكل ، يا أمي ، لابد أن أرحل » .

نهضت الأم واقفة على قدميها : « كلا ، لن ترحل .. ستأخذك معنا . آل ، احضر السيارة بظهرها عند مدخل الباب . سنضع مرتبة على أرضية صندوق السيارة ينام عليها توم ، ونضع باقي المراتب من فوقه ، وبذلك يمكننا أن نخفيه عن الأعين ، ستكون هناك مسافة بين المراتب ليستطيع التنفس . هذا ما سنفعله ولا جدال في ذلك » .

احضر آل السيارة وجعل خلفيتها عند مدخل الباب ، ووضعوا المراتب وبينها توم ، ووضعوا كل ما عدا ذلك من أشياء فوق المراتب . وجاء أحد الحراس المسلحين .

سأل : « ما الذي يجرى هنا ؟ » .

قال الأب : « نحن راحلون ، فقد حصلنا على عرض عمل جيد بالقرب من « ويد باتش » » .

أضاء الحارس كشاف بطاريته وقال : « دعوني ألقي نظرة ، ألم يكن معكم شخص آخر ؟ » .

فقال ال بسرعة : « تقصد ذلك الشخص المتقلب المزاج ؟ ذلك القصير ذو الوجه الشاحب ؟ لقد رحل هذا الصباح عندما خفضوا الاجور » .

ـــ « اكان وجهه مجروحا هذا الصباح ؟ » .

قال ال : « انا لم ار اي شيء . هيا ليصعد الجميع ، فيجب ان نمضي » . ظل الحارس يراقب السيارة وهي تمضي عبر الشارع حتى انحرفت ناحية اليسار . عند البوابة اقترب الحارس من جانب السيارة » .

ـــ « راحلون ؟ »

قال ال : « نعم . راحلون شمالا . حصلنا على عمل » .

فتح الحارس البوابة وانحرفت السيارة شمالا تجاه الطريق ١٠١ . الطريق السريع الذي يربط الجنوب بالشمال .

رفع توم طرف المراتب وسأل : « اي طريق تسلك ؟ أليس من الافضل ان نسير في الطرق الجانبية ؟ »

قالت الأم : « دق على كابينة السيارة ، واطلب من آل أن يتوقف » .

توقفت السيارة .. نزل آل واتجه الى خلف السيارة . وسأل :

ـ « ماذا تريدون ؟ » .

قالت الأم : « توم يقول ، انه من الأفضل ان نسير في الطرق الجانبية » .

واضاف توم : « بسبب وجهي ، فمن الممكن لأي شرطي ان يتعرف علي . واذا كنا متجهين الى الشمال ، فربما نجد انفسنا في تلك الحالة متجهين ناحية الجنوب » .

قال آل : « لابأس ! » .

اسندت الأم ظهرها الى ظهر صندوق السيارة وقالت : « عندما يكون الانسان مطاردا ينتابه احساس غريب . احساس بالوضاعة » .

قال الأب : « كلنا نشعر بالوضاعة . عندما كنا في المعسكر الحكومي لم نكن نشعر بذلك » .

انحرف آل تجاه اليمين . وتلاشت أشجار الفاكهة في تلك اللحظة ؛ وبدأت تظهر الحقول المزروعة قطنا على الجانب الآخر . ساروا عشرين ميلا داخل حقول القطن عبر طرق فرعية .

امتد بهم الطريق حتى عبروا جسرا من الحجر ، وواصلوا سيرهم بمحاذاة مجرى الماء على الجانب الآخر . وكشفت أضواء السيارة عن صف من الحاويات الحمراء دون عجلات (صناديق سيارات النقل الكبيرة) عند نهاية مجرى الماء .

كانت هناك لافتة على الطريق مكتوب عليها : « مطلوب عمال لجني القطن » . أبطأ آل السيارة . وتطلع توم من تحت المراتب . بعد مسيرة ربع ميل . نقر توم على كابينة السيارة مرة ثانية .

سأل آل : « ماذا تريد ثانية ؟ » .

قال توم : « ابطل المحرك وتعال الى هنا » .

خرج توم من تحت المراتب وجلس امام امه .

قال : « اسمعي يا أمي . انهم يريدون عمالا لجمع القطن . عندما يتحسن وجهى ، ساكون على استعداد للعمل ، اما الآن فلا اظن ذلك . لقد رأيت تلك الحاويات هناك . من الممكن ان نعمل هناك . لكن كيف سيتسنى لنا ان نعيش في واحدة من تلك الحاويات ؟ » .

قالت الأم : « لكن ماذا عنك انت ؟ » .

— « هل ترين تلك الشجيرات هناك بجوار المجرى يمكنني ان اختبىء فيها . فهي مكان مناسب . واثناء الليل يمكنكم ان تحضروا لى شيئا آكله » .

قال الأب : « بحق الله ، كم اود ان تلمس يداى اشجار القطن . فهذا مجال العمل الذى افهم فيه » .

قالت الأم : « من المحتمل ان تكون تلك الحاويات مكانا مناسبا للاقامة فيها ، لابأس بها وتقينا من المطر .

لكن هل تظن يا توم أن هذا المكان يمكن أن تختبيء فيه ؟ » .

ـ « بالتأكيد ، وعندما يتحسن وجهى ، سأعود اليكم » .

قال الأب : « لو اننا جميعا قمنا بجنى القطن لأمكننا الحصول على بعض النقود » .

سأل آل : « والآن ، ماذا ستفعل ؟ » .

قال الأب : « عد بنا حيث توجد تلك الحاويات ، ونبيت فى السيارة حتى الصباح ، وبعد ذلك نحصل على عمل » .

سألت الأم : « وماذا عن توم ؟ » .

ـ « لا تشغلى نفسك بى ، يا أمى ، سآخذ بطانية وعندما يحل الظلام احضرى لى شيئا من الطعام » .

قالت الأم : « خذ حذرك ، خذ حذرك ! » .

قال توم : « بالتأكيد سأفعل » ، ونزل من صندوق

السيارة • وقال لهم : « تصبحون على خير » • واخذت الام تراقبه وهو يختفي بين الشجيرات .

سأل آل : « هل اعود الآن الى مكان الحاويات ؟ » .

قال الاب : « نعم » .

قالت الام : « سر ببطء ، فأنا اود ان ارى المكان الذي سيختبىء فيه توم » .

اثار آل محرك السيارة وعاد الى حيث مكان الحاويات . حيث كان الظلام يغلفها ولا احد يتحرك .

قال آل لروزا : « اصعدي الى ظهر السيارة ، وسانام انا في المقدمة » • استلقى افراد العائلة جنبا الى جنب في صندوق السيارة . ولم يسمع سوى صوت سريان المياه في المجرى .

الفصل الثامن عشر

جني القطن

كانت الحاويات على هيئة صفين على مساحة مسطحة بجوار المجرى وكل حاوية تستوعب عائلتين ، وليس بها نوافذ ، انما مجرد باب واسع مفتوح على الدوام .

احتلت عائلة جوود نصف أحد هذه الحاويات وعلقت الام ستارة في منتصفها .

قالت الام : « لاباس بها وجافة . لن تدخلها الامطار » .

كل ليلة كانت الام تفرد المراتب لافراد العائلة ،

وتطويها في الصباح . كان افراد العائلة يتوجهون كل يوم الى الحقول لجني القطن ، ويتناولون اللحم في المساء .

في اول يوم سبت ، توجهوا بالسيارة الى « تالير » واشتروا موقدا صغيرا ، وملابس عمل للرجال (اوفرولات) ورداء جديدا للأم . واعطت الأم افضل ملابسها الى روزا .

قالت الأم : « ان مقاسها كبير ، واذا اردنا شراء ملابس جديدة لها ، سيكلفنا ذلك نقودا كثيرة » .

لقد كانت عائلة جوود محظوظة . فلقد وصلوا في الوقت المناسب واستطاعوا الحصول على حاوية يعيشون فيها . اما من جاؤوا بعدهم فقد نصبت لهم خيام بالقرب من المجرى .

كانت عائلة جوود على دراية بجني القطن ، مما جعلهم يملأون الأجولة بسرعة ويذهبون بها للفرز .

في كل مساء كانوا يعودون من الحقول وتشتري الأم لحما من مخزن البقالة .

قالت الام : « ثلاثة ارطال من اللحم وزجاجة لبن لابنتي » .

استقر الجميع في مؤخرة الحاوية ، وبدأت روزا شارون في اشعال نار الموقد الصغير .

قالت لامها : « هل احضرت اللبن ؟ ناوليه لي ، فانا لم اشرب لبنا منذ الصباح » .

سألتها الام : « هل جهزت البطاطس ؟ » .

— « هاهو » .

قالت الام : « سنحمرها مع اللحم » .

ذهب الرجال للاغتسال في المجرى . اما روزا فقد وضعت البطاطس في المقلاة ، وانشغلت المرأتان امام الموقد .

تسلل وينفيلد عبر الباب .

وقال : « ماما .. ! »

— « ماذا ؟ »

ــ « ماما .. لقد حكت روث موضوع توم » .

حملقت فيه الام وانحنت امامه وقالت : « قل لي يا وينفيلد .. ماذا قالت ؟ » .

ــ « كان بعض الاطفال يتشاجرون ، وفقدت روث أعصابها وضربت واحدا منهم . بعد ذلك ضربتها فتاة كبيرة ، فقالت روث انها ستحضر اخاها الاكبر الذى سبق وقتل شخصين ليضربها . وعندما قالت لها الفتاة انك كاذبة . قالت لها روث ان أخاها مختبىء الآن بسبب قتله شخصا .. وعندما يعود من مخبئه ، سيقتل عائلة الفتاة أيضا .. » .

قالت الام : « أوه يا الهى الرحيم . ما الذى يجب علينا ان نفعله الآن ؟ » ووضعت يديها على راسها ، ثم قالت : « اذهب الآن يا وينفيلد وابحث عنها واحضرها الى هنا » .

وما ان خرج الصبى مسرعا حتى عاد الاب .

فقالت له الام بهدوء : « اود ان اقول لك شيئا .

لقد أنقذت روث سر توم وما فعله .. بسبب شجارها مع الأطفال ، وهي لا تدرك ماذا فعلت بالطبع . الآن أريدك أن تبقى هنا وتتسمع أو أن أحدا قال شيئا . سآخذ الطعام الى توم وأخبره أن يكون حذرا .

في تلك اللحظة وصلت روث ومن خلفها وينفيلد . كان وجهها قذرا والدماء تقطر من أنفها . وعندما لاحظت وجه أمها المكفهر ألقت بنفسها بين ذراعي أمها وبدأت في البكاء والنشيج .

قالت الأم : « هس ، أنت لم تدركي خطورة ما فعلت . دعيني الآن . فلابد أن أذهب » .

اتجهت روث الى ركن الحاوية ؛ في حين غطت الأم طبق الطعام بقطعة من ورق الجرائد .

وقالت للأب : « تناول أنت طعامك . أما أنا فسأتناول طعامي عندما أعود » .

سارت الأم بهدوء عبر صف الخيام . لم توقفت

والتفتت خلفها . لم يكن هناك احد يراقبها . تعاودت سيرها بهدوء بين الأشجار .

ظلت سائرة حتى استطاعت ان ترى مدخل الكهف الذى يختبىء فيه توم . عبرت السماء سحابة سوداء وسقطت بضعة قطرات من المطر ، وانتابتها قشعريرة عندما هبت موجة ريح باردة بين الأشجار .

سمعت الأم صوت خطوات هادئة . وظهر شبح مظلم عند مدخل الكهف . تنادت الأم بصوت خفيض :
« توم .. توم ! » .

— « أهو أنت ، يا أمي ! » .

— « نعم ، جئت لأراك ، يا توم واتحدث معك » .

— « ادخلي لكن . تقدمي .. أين أنت ؟ » .

— « أنا بجوارك يا توم . هاك الطعام » .

رفع توم قطعة الورق من فوق الطبق وبدأ يأكل .

قال توم : « لحم ، وبطاطس محمرة ساخنة !! » .

قالت الأم : « توم ، لقد تشاجرت روث اليوم وحكت كل شيء عنك ، عن سر اختبائك لأنك قتلت رجلين ، توم يجب ان نرحل من هنا . وبالطبع سوف يتكلم الناس عن ذلك . كيف حال وجهك ؟ » .

ـ « يتحسن بسرعة » .

ـ « اقترب منى يا توم ودعنى أتحسسه . لقد أصبت بجرح غائر كما أن أنفك مازالت متورمة » .

ـ « ربما يكون ذلك فى صالحى . فلا يتعرف على أحد » .

ـ « لابد أن ترحل من هنا ، ياتوم » .

ـ « أجل ، أعرف ذلك » .

ـ « ها هى سبعة دولارات ، يمكنك ركوب اتوبيس وتبتعد عن هنا » .

ـ « لن آخذ أى نقود » .

فقالت الأم : « توم ، لابد أن تأخذ النقود ، فأنت

فى حاجة اليها . اذهب الى مدينة كبيرة فى اى مكان ، ولن يبحثوا عنك هناك » .

قال توم بهدوء : « اسمى ، يا أمى ، اثناء وجودى هنا وحدى فكرت فى كثير من الامور . فكرت فى كاسى وفيما كان يقوله . قال ذات مرة ، لا نفع فى المرء اذا عاش لنفسه . لابد أن نعمل كلنا سويا . وأنا مقتنع بذلك تماما » .

قالت الأم : « كان كاسى انسانا طيبا . لكن ما الذى تنوى أن تفعله ، يا توم ؟ » .

ــ « سأفعل ما فعله كاسى . سأدعو أهلنا للعمل سويا وأن يحافظوا على أنفسهم . الجميع يعملون سويا حتى نستطيع أن نزرع أرضنا نحن مرة ثانية » .

ــ « سوف يقصيدونك ، يا توم ، مثلما فعلوا مع كاسى » .

ــ « سوف يتصيدونى بأى وسيلة ، فهم يتصيدون كل أهلنا » .

قالت الام خلال الظلام : « كيف يتسنى لي ان اعرف مكانك ، يا توم ؟ لربما قتلوك · كيف يتسنى ان اعرف ؟ » ·

ضحك توم ·

ــ « ومن المحتمل الا يستطيعوا قتلي . ساظل على قيد الحياة حتى يقاتل هؤلاء الجوعى من اجل الطعام . ساظل على قيد الحياة حتى يأتى اليوم الذي يقوم فيه هؤلاء بزراعة اراضيهم مرة ثانية . ويعيشون في بيوتهم . هل فهمت ؟ انا اتحدث الآن مثل كاسي · ان الانسان يفكر في كثير من الامور عندما لا يكون باستطاعته ان يتحرك في الجوار · والآن عودي يا امي » .

ــ « ابني ، خذ هذه النقود . وعدني يا توم ، أن تعود الينا بعد سوف تجدنا ! » .

ــ « بالتاكيد · من الأفضل لك الآن ان تعودي · ناوليني يدك · وداعا » ·

امسك توم بيد امه وقادها الى مدخل الكهف ·

قالت له : « وداعا » وسارت بهدوء الى الخارج ·
كانت عيناها محمرتين تترقرق فيها الدموع ، لكنها لم تبك ·

اثناء سيرها بدأ المطر يسقط ببضع قطرات ثقيلة · وصلت الأم الى الطريق ، وسمعت خلفها خطوات · نظرت الى الخلف فرأت ضوءا · وخلال لحظة واجهها رجل ·

قال : « مساء الخير · يبدو ان الدنيا ستمطر » ·

ـ « لا اتمنى ذلك · لأن جني القطن سيتوقف · ونحن في حاجة للجني » ·

قال الرجل : « وانا ايضا في حاجة للجني ·· لدي عشرون هكتارا من القطن ، وانا في حاجة لعمال لجنيها » ·

قالت الأم : « نحن خمسة · والمنطقة التي نعمل بها لم يعد بها مساحات كثيرة للجني » ·

— « مواضع لافتة على بعد ميلين على هذا الطريق . وانا الآن ذاهب الى المعسكر » .

— « ستكون عندك فى الصباح . كل ما ارجوه الا تمطر » .

وصلا الى المعسكر فقالت له الأم : « ستكون عندك صباح الغد » .

توجهت الى الحاوية ودخلتها ، وقالت لزوجها : « لدينا عمل غدا » . ثم القت بالتحية الى السيد « وينرايت » الذى كان يجلس مع زوجها .

كان « وينرايت » هو الرجل الذى يعيش بعائلته معهم فى نصف الحاوية ويفصلها ستارة .

سألها « وينرايت » : الا يمكن ان نقوم بالجنى هناك ايضا ؟ » .

قالت الأم : « ولم لا ، بالتأكيد . فالرجل الذى قابلته يبحث عن عمال . ويمكنكم ان تركبوا السيارة معنا » .

قال الأب : : « وينرايت لديه مشكلة . وهذا هو السبب في وجوده لدينا » .

— « ماذا حدث ؟ » .

أطرق وينرايت ببصره الى الأرض وقال : « ابنتنا اجيبي ، فتاة ناضجة في حوالي السادسة عشرة من عمرها ، تتجول في وايتكم آل طوال الليل . وأخشى ان تقع في مشكلة ، فماذا يكون الحل ؟ » .

فردت الأم احدى المراتب وجلست ، ثم قالت : « آل ، فتى مؤدب ولم أكن اتمنى افضل منه » .

— « نحن نحب آل ، لكن ماذا يحدث لو أنكم رحلتم ، أو نحن رحلنا . ثم اكتشفنا أن اجيبي في ورطة ، لا نود ان يلحق بعائلتنا أي عار » .

— « أرى أنه لن يلحق بكم أي عار بسببنا .. سوف يتحدث زوجي مع آل . واذا لم يرغب ، فسأتولى أنا الحديث معه » .

قال وينرايت : « تصبحون على خير • ونحن على ثقة من ذلك • شكرا » • ثم اتجه الى الجانب الآخر من العاربة مارا بجانب الستارة • واستطاعت الأم وزوجها أن يسمعاه يتحدث الى زوجته بصوت خفيض •

قالت الأم بصوت منخفض : « لقد وجدت توم • • وطلبت منه أن يرحل بعيدا • ولد طيب » •

ثم اضافت قائلة : « أنا آسفة ، لم يكن ينبغى على ان أقول انني سأتكلم مع آل • فهذا شأنك انت » •

قال الأب : « أعرف • فأنا لم يعد لي فائدة الآن • أنفق كل وقتي في التفكير فيما صارت اليه الأمور • شيء غريب ، فالنساء أصبحن يقررن أمور العائلة • • أنا لم أعد أهتم بذلك » •

قالت الأم : « المرأة تستطيع أن تصرف الأمور أفضل من الرجل • وعلى كل لا تقلق ، فربما نستطيع العام القادم أن يكون لنا مكان خاص بنا نأوى اليه » •

قال الأب : « لن يكون لدينا مكان خاصة بعد أن

ينتهي العمل . لا عمل في كاليفورنيا في فصل الشتاء . وروزا سوف تلد طفلها . يبدو أن حياتنا قد انتهت عند هذا الحد » .

قالت الأم وهي تبتسم : « كلا ، لم تنته بعد ، لم تنته ، وهذا شيء تعرفه النساء . لن يصير مآلنا الى الهلاك » .

سمعت بضعة خطوات بالخارج ، بعدها وصل آل .

قالت الأم : « آل ، كنا نتحدث بخصوصك . تعال واجلس هنا » .

ـ « وأنا كذلك كنت أود أن أتحدث معكم . سأرحل قريبا جدا . فأنا وأجيبي ويترايت اتفقنا على الزواج . سوف أحصل على عمل في جراج ونستأجر بيتا . هذا ما سوف نفعله . ولا يستطيع أحد أن يمنعنا من ذلك » .

حملقا فيه ..

قالت : « نحن سعداء بذلك ، يا آل • فأنت رجل ناضج ، ولى حاجة لزوجة • لكن نرجوك أن تبقى حتى الربيع ، فمن سيقود السيارة ؟ » •

أطلت السيدة وينرايت من خلف الستارة ، وقالت لزوجها : « هل سمعت ؟ سوف يتزوجان • الأمر يستحق أن نصنع كعكة ! » •

فقالت الأم وهى تقف : « ساضع القهـوة على النار ، واصنع كعكة » •

فأجابتها السيدة وينرايت : « وأنا لدى سكر • يمكنك أن تستخدميه » •

أشعلت الأم الموقد • وجلست روث ووينفيلد فى الركن حيث كانا نائمين •

وبينما كانت الأم تقوم بصناعة الكعكة دخلت روزا شارون •

سألت : « ما الذى يحدث ؟ » •

قالت الأم بفرحة : « لدينا أخبار طيبة . سنقيم حفلا . آل واجيبي سيتزوجان ! » .

ظلت روزا شارون واقفة وتطلعت الى آل . بينما قالت السيدة وينرايت للأم : « اجيبي ترتدي فستانا جديدا . سنكون معكم خلال دقيقة » .

استدارت روزا شارون ببطء وتوجهت ناحية الباب وانطلقت الى الخارج . سارت ببطء في اتجاه المجرى وسط الأشجار . كانت الريح تهب في تلك اللحظة .

ركعت روزا شارون على ركبتيها وأخذت تزحف بين الشجيرات . وعندما احست بأن الشجيرات تحيطها من كل مكان توقفت وتمددت على ظهرها وأحست بثقل الطفل في بطنها .

الفصل التاسع عشر

الأمطـــــار

استيقظت الأم بعد أن دفعت الغطاء بعيداً عنها . اتجهت ناحية الباب وأخذت تتطلع الى الخارج . كان هناك قليل من الضوء ينبعث من جهة الشرق ، والريح تهب والندى يملأ الهواء . أصابتها قشعريرة . بعد ذلك استدارت عائدة وأشعلت الفانوس . وقامت بتكسير بعض الحطب وسرعان ما كانت النار مشتعلة .

نهضت روزا شارون جالسة وقالت : « سوف اليوم يجني القطن » .

ـ « ليس بك حاجة لفعل ذلك » .

ـ « بل سأذهب » .

قالت الأم : « لا بأس . لكن لا تجهدى نفسك فانت على وشك الوضع » .

وضعت الأم اللحـــم فى وعـاء الطهى ، وبدأت الحركة تدب ببطء فى افراد العائلة .

قالت لهم الأم : « هيا اذهبوا لتغتسلوا » .

قال آل : « ما الداعي للاستيقاظ مبكرا هكذا ؟ فنحن لا يمكــن ان نقوم بجني القطــن فى الظــلام ، يا أمى ! » .

قالت الأم : « انها عشرون هكتارا فقط ، ومن الأفضل ان نصل الي هناك مبكرا قبل ان يتم جنيها . عندما تكون مستعدا يا آل ، أدر محرك السيارة » . ثم نادت على جارتها : « هل أنت جاهزة يا ويفرايت ؟ » .

ـ « مجرد ان آكل ، سأكون جاهزة خلال دقيقة » .

تطلعت الأم ياسي ناحية روزا شارون وقالت : « خذي بطانية معك ، حتى اذا أردت أن تستريحي ، ستجلب لك الدفء » ٠

دار محرك السيارة ، وصعدت اليها عائلة ويترايت وعائلة جوود ٠

قالت الأم : « سنكون أول من يصل الى هناك » ٠

مضت السيارة خلال الطريق المظلم ، وعندما وصلوا الى اللافتة المكتوب عليها (مطلوب عمال لجمع القطن) كانت الساحة مليئة بالسيارات عن آخرها ٠

قال آل : « لم نصل مبكرين كما كنا نظن » ٠

سجل صاحب المزرعة الأسماء في كراسة ٠ ثم قال : « الآن ، يمكنكم أن تنطلقوا الى العمل ٠ والضوء كاف للرؤية » ٠

كانت هناك سيارات ما تزال تصل من الطريق السريع ٠ وتحركت صفوف من الناس عبر الحقول ، رغم أن الريح الشديدة كانت تضرب ملابسهم ٠

ألقى الأب نظرة سريعة على التلال الغربية ، فرأى سحبا سوداء ثقيلة تتحرك فوقها ، فقال : « يبدو أنها على وشك أن تمطر » • فتطلع كل العاملين خلفهم ناحية السحب • وزاد انحناؤهم وأخذوا يجمعون القطن بأسرع ما يمكن • كانوا يسابقون المطر ويسابق بعضهم بعضا • وما لبثت السحب السوداء الثقيلة أن تحركت في السماء تجاه الشمس المشرقة •

في الحادية عشرة كان حقل القطن قد اكتمل جنيه وانتهى العمل • ووقف العمال في صف ليقبضوا أجرهم • وعادت العائلات الى سياراتها في صمت • وانطلقت السيارات عائدة ببطء •

وما كانت عائلة جوود وعائلة ويذرايت تصعدان الى السيارة ، حتى بدأت أول قطرات المطر في السقوط ، وكانت الأم وروزا شارون تجلسان في كابينة السيارة •

قالت الأم عندما رأت روزا ترتجف فجأة : « لم يكن ينبغي أن تحضري معنا » • لكن روزا لم ترد عليها •

صرخت الام قائلة : « اسرع ، يا ال ، فروزا ترتجف . لقد اصيبت بنزلة برد . ويجب أن نضع قدميها فى ماء ساخن » .

قاد آل السيارة بسرعة الى معسكر الحاويات .

قالت الأم : « ليذهب الرجال لاحضار بعض الخشب . ينبغى أن نتدفأ » .

حاولت روزا شارون السير ، لكن ساقيها لم تتحملاها . وعندما رأتها السيدة وينرايت سألت امها : هل حان ميعاد ولادتها ؟ » .

فاجابت الأم : « كلا ، لا اعتقد ذلك . ربما اصيبت بنزلة برد . ساعدينى لو سمحت ؟ » .

فقامت المرأة بمساعدة روزا حتى وصلت الى الداخل ، وقالت : « سأشعل النار حالا » . فى تلك الاثناء كانت الأمطار تهطل بشدة وتضرب سقف الحاوية .

قالت الأم : « حمدا لله ان لدينا سقفا متينا ..
فالخيام عادة ما تنهار » .

قالت روزا : « غطيني يا امي ، فأنا اشعر ببرودة شديدة » . وضعت الأم كل البطانين الموجودة فوقها .
في تلك اللحظة عاد الرجال وأذرعهم محملة بكومات من الخشب .

قال الأب : « يا الهي ، المنطقة كلها اكتسحها المطر » .

قالت الام : « من الأفضل أن تعودوا وتجلبوا مزيدا من الخشب ، فسرعان ما سيحل الظلام . اما انت يا ويتفيلد وروث فابقيا هنا » .

ظل المطر يهطل ساعة بعد ساعة . واحضر الرجال المزيد من الخشب وكوموه بجوار الباب . وكانت ثيابهم تقطر ماء .

قالت الام : « والآن ، اخلعوا هذه الملابس ،

وساعد لكم شيئا من القهوة ، اثناء ارتدائكم ملابس جافة » ٠

وسرعان ما حل المساء ٠ وجلست العائلتان داخل الحاوية تنصتان الى صوت المطر المنهمر فوق السقف ٠

* * *

فى اليوم الثانى للمطر انزل آل السنارة التى تفصل بين نصفى الحاوية وغطى بها محرك السيارة ٠ وبذلك اصبحت العائلتان عائلة واحدة ٠

وفى كل انحاء المعسكر شكلت المياه بركا صغيرة ، واختلط الطين بمياه الأمطار ٠ ارتفع منسوب مياه المجرى المائى وفاض حتى وصل الى مستوى القواعد التى توجد عليها الحاويات ٠

فى اليوم الثالث اصاب القلق والتوتر عائلة وينرايت ٠٠ فقالت السيدة وينرايت : « اعتقد انه يكون من الأفضل ان نغادر المكان » ٠ حاولت الأم ان تبقيهم ، وراقبت رد فعل آل ٠ اما روزا شارون فقد ارتفعت درجة

حرارتها نتيجـة نزلة البرد الثقيلة التى اصابتها ..
حاولت الام ان تسـقيها بعض اللبن لكنهـا رفضت ، وهزت راسها بوهن ، وقالت : « انا جوعانة » .

كان الرجال يراقبون ارتفاع منسوب الميـاه فى المجرى ، وقال الأب : « لو ارتفع المنسوب اكثر من ذلك فسوف تدركنا المياه فى الحاويات . لكننا لو قمنا بتدعيم الجسر وتعليته ، فاعتقد ان الامر سيكون على ما يرام » .

قال وينرايت : « اعتقد انه من الأفضل ان نرحل بعيدا عن هنا » .

قال ال : « ابى ، لو رحلوا ، فسارحل معهم انا ايضا . فانا واجيبى لابد ان نكون معا » .

اصابت الأب الدهشة وقال : « لا تستطيع الرحيل ، يا ال . فالسيارة .... ولن يكون بامكاننا الحصول على مكان افضل من هذا . دعك من ذلك الآن . دعنا نتحـدث فى ذلك الامر مع الآخرين » . وتوجهـا الى الحاوية المجاورة .

كانت الام تجلس امـام الموقد ، وتحـافظ على اشتعال النار بتغذيتها بالاخشاب من حين لآخر ٠

قالت روث : « انا جوعانة ٠ ولا يوجد اى شىء نفعله ولا اى تسلية » ٠

قالت الام : « سيكون كل شىء على ما يرام ٠٠ اهدئى ، ولا تضايقينى الآن يا روث ، فروزا مريضة » ٠

اطلقت روزا صرخة سـريعة حادة ، وامسكت انفاسها وامتلأ وجهها رعبا ٠

صرخت الام : « سيدة وينرايت ! ٠ انظرى ! » ٠ واشارت الى وجه روزا ٠ « ربما يكون موعد ولادتها قد حل ٠ لكن ما زال امامها فترة ، او تكون الحمى قد عجلت بموعد الولادة ؟ » ٠

قالت السيدة وينرايت : « من الافضل ان تنهض على قدميها وتمشى قليلا ٠٠ هيا ٠٠ اغلقوا الباب ٠٠ سأحضر مصباحنا ، وانت يا روث ووينفيلد اذهبا عند نهاية الحاوية واجلسا مع آجيبى » ٠

ـ « أريد أن أرى ، يا أمي ، أريد أن أرى روزا شارون وهي تلد طفلها » •

ـ « اذهبي الآن ، يا روث •• اذهبي بسرعة ! » •

وقف كل من روث وويتفيلد خلف كومة الخشب •

وقالت روث لوينفيلد : « لا تحدث أي ضجة • يمكننا أن نشاهد كل شيء أثناء انشغال أمي » •

قالت الأم لروزا : « ستلدين طفلا جميلا • هيا انهضي وتمشي •• حاولي ، سوف نساعدك » • ثم رفعتها الأم من ناحية والسيدة وينرايت من الناحية الأخرى •

تصلب جسم روزا شارون وأطلقت صرخة ألم • أرقدوها على المراتب حتى زال الألم • ثم ساعدوها مرة ثانية على الوقوف وبدأت تتمشى •

أطل الأب من خلال فتحة صغيرة ثم تساءل : « لماذا أغلقتم الباب ؟ » •

قالت الأم : « حل ميعاد ولادتها »

– « اذن فلن نستطيع الرحيل من هنا ·· يجب علينا اذن تقوية الجسر وتعليته » ·

– « هذا صحيح · يجب ان نفعل ذلك » ·

سار الأب في الطين الى المجرى · كان يقف هناك اثنا عشر رجلا · صاح فيهم الأب : « يجب علينا تعلية الجسر · لقد داهمت ابنتي الام الوضع ·· هيا نبدأ الآن » ·

قال رجل طويل : « ومالنا نحن ·· يمكننا الرحيل » ·

قال الأب : « بالتأكيد · يمكنك الذهاب · ولا احد يمنعك » ·

اسرع الأب متجها ناحية الجزء المنخفض من الجسر ودفع بالمجرفة في الطين · وبدأ الرجال العمل الى جانبه · كان الرجال يعملون بحماس · وعندما

كان اى رجل يضحى جاروفه جانبا ، كان اخر يتناوله منه ٠

ندت صرخة من الحاوية التي تمسكنها عائلة جورد ٠ توقف الرجال واخذوا يتسمعون للحظة ، ثم عادوا للعمل ثانية ٠

غمرت المياه ببطء الجانب الذى يقومون بتدعيمه ٠

نصاح الأب : « يجب ان يكون أعلى من ذلك ٠٠ أعلى ! » ٠

حل المساء وما زال الرجال يعملون ورغم ان التعب حل بهم الا انهم واصلوا العمل مثل الماكينات ، حتى حل الظلام . فقامت النساء بوضع الفوانيس على أبواب الحاويات ٠

فى تلك الاثناء كانت الام روزا شارون تزداد حدة ٠ فأخذت تصرخ وتصرخ ٠ وكانت النسوة يدخلن ، ويتطلعن اليها باشفاق ، ثم يعدن مرة ثانية الى حاوياتهن ٠ واستمرت صرخاتها لفترة طويلة ،

واخيرا ، حدث صمت • واخذت الأمطار تتساقط بشكل مستمر •

قال الأب : « من المفروض ان تقول لى زوجتى اذا كان الطفل قد ولد أم لا » • واستمر في الحفر في الطين •• وحدث صوت فرقعة • لقد سقطت شجرة ضخمة في المجرى ، ثم اخذت تتحرك ببطء مع التيار • ولاحظ الرجال ان أفرع الشجرة أثناء سقوطها هدمت ما قاموا به من تعلية للجسر •

بدأت المياه تتراكم خلف الشجرة ثم بدأت تسيل من فوق الجسر • تراجع الرجال واسرعوا بالعودة ، وجرت المياه ببطء على الارض المسطحة وتسللت تحت الحاويات وتحت السيارات •

اندفع آل ناحية السيارة • ورفع الغطاء من فوق المحرك وحاول ادارته • حاول وحاول لكن المحرك كان مليئا بالماء • كانت هناك سيارات دارت محركتها لكن عجلاتها غاصت في الطين الى اقصى ما يمكن •

دخل الأب الحاوية من خلال الفتحة الموجودة بها وسأل : « كيف حالها ؟ » . تطلعت الأم الى أعلى والى أسفل وقالت : « أعتقد أنها على ما يرام . هى نائمة الآن » .

قادت السيدة ويفرايت الأب الى صندوق فى أحد أركان الحاوية ورفعت القانوس فوق الصندوق .

وقالت : « اذا لم يتنفس الطفل ، فلن تكتب له الحياة » .

سار الأب ببطء تجـاه الأم . فتطلعت اليه الأم للحظة ، بعينين واسعتين .

قال الأب : « لقد بذلنا أقصى جهدنا .. عملنا طوال الليل . لكن المياه تسللت تحت السيارات الآن » .

قالت الأم : « أعرف .. فقد سمعتها » .

ـ « نحن لا نعرف القدر الذى سترتفع به المياه . ربما غمرت السيارة » .

ـ « أعرف » .

ـ « هل ستكون روزا على ما يرام ؟ هل هناك شيء يمكن أن نفعله ؟ » .

ـ « كلا . كان هناك شيء واحد فقط ينبغي علينا أن نفعله ، وقد قمنا بتأديته » . قالت الأم ذلك ونظرت الى الأب بابتسامة مليئة بالتعاطف والحب ، ترتسم على شفتيها البيضاوين .

سمع من الخارج صوت غاضب :

ـ « أين ذلك الأحمق جورد . لولا فكرته الحمقاء تلك عن تغطية الجسر ، لكنا الآن بعيدا عن هذا المكان ! » .

وسمع صوت آل وهو يرد عليه : « اذا كان لابد أن تدخل فعليك أن تقاتلني أولا » .

نهض الأب ببطء واتجه ناحية الباب .

ـ « انتظر ، يا آل ، فأنا قادم » . ثم قال للرجال الثائرين « لدينا انسانة مريضة بالداخل » .

قالت السيدة وينرايت للأم : « لماذا لا تنامين قليلا . ساجلس أنا الى جوارها » .

ابتسمت الأم وقالت : « لقد كنت في غاية الود ، ونحن نشكرك على ذلك » .

ـ « لا داعي للشكر . فلو حلت بنا مشكلة ، لكنتم ساعدتمونا » .

قالت : « نعم . هذا واجب . كان كل ما يعنينا في فترة ما هو العناية بأمر العائلة . أما الآن فنحن نعنى بأى انسان ، وكلما ساءت الأمور ، كلما تحتم علينا أن نقدم المزيد من العطاء لبعضنا البعض » .

تمددت الأم على المرتبة بجوار ابنتها . وجلست السيدة وينرايت على الأرض ، وظلت مستيقظة تراقب .

الفصـل العشـرون

في الحظـــيرة

جلس الأب وآل عند الباب يترقبان حلول الفجر ٠ ورغم ان المطر قد توقف الا ان السماء كانت ملبدة بغيوم كثيفة ٠ وعندما بزغ ضوء النهار اتضح لهما ان فيض المياه ما زال يرتفع ٠

سأل آل : « هل تعتقد ان الميـــاه ســتدخل الى الحاوية ؟ » ٠

قال الأب : « لا ادرى ، فربما تمطر ثانية » ٠

قال آل : « اعتقد ان المياه ستصل الى داخـل الحاوية بارتفاع حوالي ثلاثة او اربعة أقدام » ٠

ـ « ربما » ٠

ـ « لن نتمكن من الرحيل من هنا ٠٠ يمكننـــا استخدام عوارض صندوق السيارة لنصنع منها مصطبة داخل العاوية ٠ وبهذه الطريقة يمكننا ان نحتفظ بكل شيء جافا » ٠

قال الأب : « من الأفضل أن نفعل ذلك ، فالميــاه تزداد ارتفاعا » ٠

تقلبت الأم بقلق اثناء نومها ، ثم صاحت : توم ، اه ، يا توم ! ٠

نهضت السيدة وينرايت واشارت الى الصندوق ، حيث يرقد الطفل الميت مغطى بقطعة من القماش ٠

ـ « ان وجوده يسـبب حزننا واسى هنــا ٠٠ الا يمكنكم دفنه ؟ » ٠

قال الأب : « انت على صواب فعلا ٠٠ صحيح ان ذلك مخالف للقانون لكنني سافعله » ٠

تناول الأب جاروفا وناولتــه السـيدة وينرايت الصندوق ٠ وعندما عاد الأب من مهمته ، كان آل يعمل

في فك عوارض السيارة ، فساعده أبوه في حملها الى الحاوية ·

جلست الأم وقالت : « ما الذي تفعلانه ؟ » ·

ــ « سنقوم بعمل مصطبة · وبهذه الطريقة نحتفظ بكل شيء بعيدا عن البلل · فالمياه ترتفع طول الوقت » ·

قالت الأم : « لابد ان نرحل من هنا » ·

قال آل : « لا نستطيع ·· فالسيارة معطلة ، ثم كيف نتركها وهي كل ما نملك ؟ » ·

نظرت الأم الى الأب وقالت : « من الأفضل أن تذهب الى مخزن البقالة فنحن بحاجة لشراء بعض الطعام للافطار » · ثم عادت الى المرتبة وتطلعت الى روزا شارون ·

وسألتها : « كيف حالك ؟ » ·

ــ « متعبة ، متعبة جدا يا أمي ··· » ·

ــ « أعرف ، لكن ماذا تريدين يا روزا ؟ » ·

ــ « هل ·· هل الطفل على ما يرام ؟ » ·

ارتكزت الام بركبتيها على المرتبة وقالت : « يمكنك انجاب المزيد ، لقد بذلنا ما في وسعنا » ·

تراجعت روزا الى الخلف بظهرها وغطت عينيها بذراعيها ·

عندما عاد الأب بالطعام ، اشعلت الأم النار بما تبقى من قطع الخشب ·

سألته الام : « هل تبقى لنا أى نقود ؟

قال الأب : « لا » ·

تنهدت الأم وقالت : « والآن ، ماذا سنفعل ؟ » ·

بينما كانوا يأكلون كانت المياه تتسلل وتأخذ في الارتفاع ·

تناول الأب وال الطعام بسرعة ، ثم قاما بعمل المصطبة ، بعرض خمسة اقدام وبطول ستة اقدام ، وبارتفاع اربعة اقدام عن الأرضية · كانت المياه في تلك اللحظة تتحرك على الأرضية · وفى الخارج بدأ المطر يهطل ثانية ·

قال ال : هيا نقوم الآن بوضع المراتب والبطاطين فوق المصطبة » ٠

ثم قاموا برفـع روزا شارون بمرتبتها ووضعوها فوق كل هذه الأشياء ٠ وفى الناحية الأخرى من الحاوية قامت عائلة وينرايت ببناء مصطبة لهم ٠

تطلعت الأم الى أسفل ٠ كانت المياه بارتفـاع نصف بوصة على الأرضية فى تلك اللحظـة ٠ فقالت فجأة : « لابد أن نرحل من هنا » ٠

قال الأب : « لا نستطيع .فكل حاجياتنا هنا » ٠

* * *

خلال فترة النهار والليل ، كانت المياه قد ارتفعت بمقدار ست بوصات على أرضية الحاوية ٠

فى صباح اليوم الثانى ، أخذ الأب يخوض أرض المعسكر المليء بالمـاء ، وعاد ومعـه عشر حبات من البطاطس فى جيبه ٠ ورأته الأم يكسر جزءا من جانب الحاوية ليشـعل نارا ٠ وتناولت الأسـرة البطاطس المسلوقة الساخنة بأصابعها ٠

عندما انتهت الوجبة الأخيرة شرعوا في خوض المياه العكرة بحثا عن شيء يأكلونه · لم يناموا لفترة طويلة ·

وفي الصباح قالت الأم : « سوف نرحل من هنا ، الى مكان اعلى · وبامكانكم أيها الرجال ان تأتوا ، أو تبقوا ، لكنني سآخذ روزا والأطفال بعيدا عن هنا ·

قال الأب بوهن : « لا نستطيع » ·

ــ « لا بأس اذن · لكن ينبغي أن تساعد روزا شارون في الوصول الى الطريق السريع ثم تعود ثانية » ·

قال آل : « أنا لن أرحل ، يا أمي ، فأجيبي وأنا ··· » ·

ابتسمت الأم وقالت : « بالطبع ·· ابق أنت هنا ، لترعى حاجياتنا ، يا آل · وعندما تنحسر المياه ، سوف تعود · هيا ، يا روزا شارون · سوف يحملك أبوك حتى الطريق » ·

وقف الأب وسط الماء ينتظر . ساعدت الأم روزا شارون في النزول من فوق المصطبة وحملها الأب وسار بها عبر المياه العميقة حتى وصل الى الطريق السريع . اوقفها على قدميها وعاد ليحمل زوث ، بينما كانت الام تقف وسط الماء .

قالت الأم : « اجلس على كتفي يا وينفيلد . وانت يا آل . اذا حضر توم قل له اننا سوف نعود ثانية . قل له ان يكون حذرا » . ثم مضت تسير في الماء

وقفوا على الطريق السريع ، والقوا نظرة على السيارة والحاوية والمياه التي تتحرك ببطء . وبينما هم واقفون بدأت السماء تمطر قليلا .

قالت الأم : « ينبغي أن نمضي في الطريق .. حاولي ان تمشي يا روزا » .

قال الأب متألما : « الى أين أنتم ذاهبون ؟ الى أين ؟ » .

ـ « لا أدري .. هيا ، ساعد روزا . سنذهب الى أي مكان يحمينا من المطر » .

ساروا ببطء على الطريق .. غدت السماء أكثر عتمة وبدأ المطر يسقط بشدة .

قالت الأم : « لابد أن نسرع . فلو أن هذه البنت أصابها البلل فلا أدري ماذا سيحدث لها » .

بعيدا عن الطريق وفوق تل صغير ، كانت توجد حظيرة .

قالت الأم : « أنظروا ! .. سنذهب الى هناك ، أعتقد أن هذه الحظيرة ستكون جافة . أسرعوا ، فهناك مزيد من المطر قادم » .

هبت العاصفة ، وسقطت الأمطار الغزيرة فوقهم . مشوا عبر الطين بصعوبة حتى وصلوا الى أعلى التل . انزلقت قدم روزا شارون . توقف الأب للحظة وحملها . وأخيرا وصلوا الى الجزء الخلفي من الحظيرة والمطر يسقط بغزارة فوق السطح . وضع الأب روزا شارون فوق صندوق قديم .

قالت الأم : « ربما يكون هناك بعض القش بالداخل . انظر ، ها هو باب » .

فتحت الباب ثم قالت بفرح : « يوجد قش ! ·
احضرها الى هنا ، وانتم أيها الصغار تعالوا هنا ! » ·

قال وينفيلد : « انظري يا أمي ! · هناك في الركن » ·

تطلعت الأم ·· كان هناك شخصان · رجل مستلق على ظهره وصبي يجلس الى جواره · نهض الصبي واقفا ببطء · وسأل : « هل أنتم أصحاب المكان ؟ » ·

قالت الأم : « لا ·· لقد جئنا الى هنا لنحتمي من ماء المطر ·· معنا فتاة مريضة · هل لديكم بطانية جافة ، نستطيع استخدامها ؟ » ·

ذهب الصبي الى الركن واحضر بطانية قذرة

قالت الأم : « شـــــكرا لك ·· ما حكاية ذلك الرجل ؟ » ·

قال الصبي : « انه مريض ·· يكاد يموت من الجوع · لم يأكل منذ ستة أيام ! » ·

اتجهت الأم ناحية الركن وتطلعت الى الرجل ثم سألت الصبي : « أهو أبوك ؟ » ·

ـ « نعم .. اعطاني كل الطعام . لقد اصابه الضعف ، لا يستطيع التحرك » .

قالت الأم : « سيكون على ما يرام . انتظر فقط حتى أخلع الملابس المبتلة من ابنتي » .

رفعت الأم البطانية كساتر بينما كانت روزا شارون تخلع ملابسها ، ثم لفت البطانية حولها .

وفجأة قال الصبي : « ابي يموت ، يموت من الجوع . لابد أن يحصل على شيء من اللبن ... » .

قالت الأم : « هس ! » . ثم نظرت الى روزا شارون .. والتقت عيون المرأتين ، وتسارعت أنفاس روزا وقالت : « نعم » .

ابتسمت الأم : « كنت على يقين بانك ستوافقي ، كنت أعرف » .

همست روزا شارون وقالت : « أيمكنكم .. أيمكنكم الخروج جميعا » .

نهضت الأم بسرعة وقالت : « هيا بنا جميعا .. وانت تعال معي أيها الصغير » . ثم انحنت وقبلت روزا

على جبهتها ، ودفعت الآخرين الى الخارج بسرعة وأغلقت الباب خلفها ٠

جلست روزا شارون ساكنة للحظة ٠ ثم اتجهت ببطء ناحية الركن ٠ تطلعت الى عيني الرجل الواسعتين المرتعبتين ٠ ثم تمددت ببطء الى جواره ٠ أخذ يهز رأسه ببطء من جانب الى جانب ٠

ثم قالت : « لابد أن تشرب اللبن » ٠ وقربت رأسه من صدرها ٠

وقالت : « اشرب ! ٠٠ اشرب ! ٠٠ » بينما كانت يدها تسند رأسه بحنان ، ثم تطلعت عبر الحظيرة وابتسمت ! ٠

رقم الايداع : ٩٨/٨١١٨

الترقيم الدولي : I.S.B.N : 977 - 01 - 5741 - 4

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

فرع الصحافة

مكتبة الأسرة

القراءة للجميع

بسعر رمزي جنيه واحد
بمناسبة
مهرجان القراءة للجميع ١٩٩٨

مطابع
الهيئة المصرية العامة للكتاب

يعتبر جون شتاينبك من أعظم وأشهر الأدباء الأمريكيين.. حصل على جائزة نوبل عام ١٩٦٢.. كتب عديداً من الروايات وصف فيها حياة الطبقات الفقيرة التي تتضور جوعاً في أمريكا.. وقد ترجمت معظم رواياته إلى اللغة العربية.

وفي رواية «عناقيد الغضب» يصور لنا جون شتاينبك بأسلوب واقعي شيق وجذاب، حياة أسرة أمريكية فقيرة عبرت الولايات المتحدة الأمريكية من شرقها إلى غربها بحثاً عن عمل يدر عليهم دخلاً يكفي لسد احتياجاتهم من الطعام بدلاً من الموت جوعاً، ويحكي لنا كيف يستغل الرأسماليون وأصحاب الأراضي الأمريكيون هؤلاء الفقراء من الفلاحين ويعاملونهم معاملة أقل من معاملة العبيد.